فقه التاريخ وانتصارات صلاح الدين

أحمد حمد أحمد *

* حصل على دكتوراه الدولة في القانون من جامعة باريس عام 1978.
يعمل حالياً أستاذاً بقسم الفقه والأصول بجامعة قطر.

الملخص

لم يكن صلاح الدين رجلاً ممن يُكتفى بإدراجهم في عداد الرجال، ولا بطلاً يُشاد ببطولته كما يشاد ببطولة غيره من الأبطال، فقد خصه الله بما لا يخص به سائر من عاصروه. لقد كانت بطولاته وانتصاراته تزلزل أعداء الأمة الإسلامية سواء منهم المحيطون بها أو المندسون فيها، وكانت أفضاله ومكرماته تشد ألسنة الناس بالدعاء له والثناء عليه.

ومثل هذه الشخصية الفذة التي جاءت على قدر في القرن السادس الهجري ـ أي في العصر الذي تكالب فيه أعداء الإسلام على الأمة الإسلامية يريدون القضاء عليها والخلاص منها ـ تستحق من عظيم التقدير ما يكافئ قدرها ومن جلال التوقير ما يرفع ذكرها، فقد بذل صاحب هذه الشخصية الفذة كل شيء ذوداً عن حياض الأمة الإسلامية ونذر نفسه للجهاد في سبيل الله كسراً لشوكة أعداء الإسلام. وعلى الرغم من الحروب المتوالية التي خاضها صلاح الدين، وأحرز فيها انتصارات باهرة على أعداء الإسلام، وعلى الرغم من السياسة الراشدة التي انتهجها لإحقاق الحق وإشاعة العدل بين الناس، فإن المؤرخين لم يعطوه ما يستحق من تقدير وتبجيل بل إن منهم من تجاهل أمره ومنهم من حاول أن يطمس ذكره، حتى إن من أراد أن يعرف معلومات متكاملة أو قريبة من الصحة عن صلاح الدين فعليه أن يسمع ما يتردد على ألسنة الناس ولا يبحث في كتب التاريخ، أي يبحث عنه في التاريخ المأثور ولا يبحث عنه في التاريخ المسطور، فإن سيرته قد أخذت مكانها في ذاكرة الناس ولم تأخذ مكانها في ذاكرة التاريخ.

وهذا ما دعانا إلى أن نكشف النقاب عن سيرة هذه الشخصية الفذة ونتحدث عنها بطريقة تتلاءم مع ما تتميز به من خصائص حتى يتبين للقارئ ما ينبغي أن يعرفه عنها أو ما يستطيع أن يصحح به نظرته إليها، كما دعانا هذا إلى أن نبدي رأينا في المؤلفات التاريخية من حيث إعادة النظر في محتوياتها من جديد حتى تصير مصدراً موثوقاً ومرجعاً مأموناً في صدق الأحداث وتقويم الأشخاص. ومن المعلوم أن التاريخ ركيزة أساسية لأي موضوع في أي مجال من مجالات العلوم.

إن التاريخ هو عمر البشرية بكل ما مر به من أحداث وأثر فيه من أشخاص، فإذا لم نكن على معرفة صادقة بما يجري في هذا العمر من أحداث وما يؤثر فيه من أشخاص كانت تصرفاتنا أقرب إلى الغموض منها إلى الوضوح، لذلك نؤكد أن التاريخ في حاجة ماسة إلى محاولات جادة وفقه عميق ليكون المرجع الأمين في التحقيق والتوثيق.

مقدمة

اسم صلاح الدين من الأسماء التي صار لها رنين خاص في آذان السامعين. وسيرة صلاح الدين من السير العطرة التي يوصي الناصحون بتلقينها الناشئين.

والحق أن سيرة صلاح الدين أخذت مكانها المرموق بين سير العظماء في تاريخ المسلمين، وأصبحت عبر الأجيال وعلى مر العصور ذكريات مجيدة تعجب المسلمين وبها يسعدون ويغتاظ منها غير المسلمين وبها يحزنون. لقد امتلأت صفحات حياته بما يطيل الهامة ويرفع الرأس من نصر بطولي وعمل جليل، فتقلد بجدارة إكليل الفخار وتقلدت الأمة الإسلامية بدورها هذا الإكليل.

وسير العظماء في أي أمة تعتبر معالم بارزة تسترشد بها في مسيرتها الظافرة نحو ما تأمل من رقي وترجو من امجاد، بل إن هذه السير العظيمة تعتبر بالنسبة لأي أمة كالدم النقي يتدفق في عروقها فيكسبها الحركة والحيوية والقوة والبقاء، فالأمة بدون معالم بارزة تسترشد بها لا تستطيع أن تتابع مسيرتها إلى غايتها بسبب التعثر أو الانقطاع أو الضياع، كما أنها بدون دم نقي يتدفق في عروقها يستولي عليها الضعف الشديد الذي يؤدي بها إلى فقدان الحياة والاختفاء من الوجود. بل إن الأمة التي لم يحفل تاريخها بمثل هذه السير العظيمة تعد بين الأمم أمة بلا تاريخ.

وأي عظيم من عظماء التاريخ لا يستطيع أن يخط سيرته وحده، بل إن هذه السيرة يخطها معه كوكبة عظيمة أيضاً، كوكبة تتألف من رجال وأبطال قد تجردوا من علائق الحياة وارتبطوا ارتباطاً وثيقاً بما يرجون عند الله. ومن هنا تعتبر هذه الكوكبة عنصراً ضرورياً رئيسياً في أي انتصار يتحقق على يد هذا العظيم وركناً أساسياً ركيناً في تكوين شخصية هذا العظيم، فلا بد لأي عظيم من عظماء التاريخ من كوكبة تتجلى عظمته بينها، ولا بد لهذه الكوكبة من عظيم تنتظم حوله.

ولا شك أن لكل فرد من أفراد الكوكبة تاريخاً خاصاً به وسيرة عطرة ينفرد بها، ولكن الله أراد أن تتجمع هذه السير الزكية فتصنع بمجموعها بحراً يفيض بالماء العذب

الفرات كي يستمد منه هذا العظيم الري دائماً وحياة العظمة التي لا تبقى بدون هذا الري الزكي.

والتاريخ الذي يقصر في الإشادة بهذه الكوكبة أو يهمل في الإشارة إلى مدى تأثيرها على الأحداث وتهيئة الأوضاع وتمهيد السبل لظهور هذا العظيم ـ يعتبر تاريخاً تنقصه الدقة والوثوق، ومعلوماته أقرب إلى الإجحاف منها إلى الإنصاف، ولا يعتبر مرجعاً أميناً يقبل عليه المثقفون والباحثون.

وخطتنا في هذا البحث أن لا نكتفي بالعرض العلمي لموضوعه بل أن نحاول أن نمزج بهذا العرض التركيز على الجانب الروحي، فإن الأحداث الظاهرة في التاريخ تحركها في الواقع قوة مسيطرة تتحكم في حدوثها وتسلسلها وارتباطها بالنظام الشامل لهذا الكون كله، وهذه القوة المسيطرة هي الجانب الروحي، لذلك رأينا أن لا يتخذ هذا البحث الصورة المعهودة من تقسيمه إلى أبواب وفصول ومطالب ومسائل، لأن هذا التقسيم يعطي انطباعاً أننا نتناول موضوع هذا البحث تناول الباحث الذي يركز على الجانب العقلي مغفلاً أو غير مهتم الاهتمام المطلوب بالجانب الروحي.

وهذا التقسيم المعهود في التخطيط لأي بحث علمي يفيد إفادة كبيرة في تنظيم المعلومات وتسلسلها وأخذ بعضها بحجز بعض، ولكنه يجذب انتباه العقل إليه ليركز على مدى استيعاب قسم أو باب أو فصل للمعلومات المتعلقة به والقضايا التي يجب أن تكون داخلة فيه، وهذا التركيز يكون بالطبع على حساب الجانب الروحي، إذ يعوقه عن المجال الذي يسرح فيه، وهو مجال المشاعر والعواطف والأحاسيس، حيث يأخذ مداه في الانفعال عند كل معلومة وحول كل قضية.

الشخصيات وكيف تقوم

الفكر والسلوك في التقويم

في تقويم الشخصيات يضل كثير من الآراء ويختلف في مناهج النظر كثير من المفكرين، فهل ينظر في تقويم شخصية ما ما عرف عنها من فكر، أو ما بدر منها من

سلوك أو منهما معا أو من نتائج هذا أو تلك؟ فقد يعي الناس الأفكار ولا يشاهدون السلوك، وقد يكون الأمر على العكس حيث يشاهدون السلوك ولا يعون الأفكار، وقد تكون الأفكار غامضة يترجم عنها سلوك صاحبها، وقد تكون السلوكيات وليدة ظروف تكشف عنها أفكار صاحبها، وهكذا تأخذ مناهج النظر في التفريع والاختلاف.

قضية لا خلاف عليها

والقضية التي لا يختلف عليها اثنان ولا يثور حولها أي جدل ولا ينهض لمعارضتها أي مفكر هي أن أحداً لا يسلم على الإطلاق أن يقوم تفكيره على خطأ ولا يسلم كذلك أن يتعرض سلوكه للانحراف. ومن المعلوم أن الخطأ في التفكير قد يضعف الثقة فيما يصدر عن صاحبه من حكم، وأن الانحراف في السلوك قد يجلب الإنكار على ما يصدر عن صاحبه من عمل. وهل الإنسان إلا فكر وعمل؟ فإذا داخل فكره عوار وإذا قوبل عمله بإنكار فماذا بقي له؟

صلة الفرد بمجتمعه

وما دام الإنسان على هذه الحال من الوقوع في الخطأ والتعرض للانحراف فإن الشك يحوم حوله والتهم تصوب إليه فلا يرجع إليه في رأي ولا يُقتدى به في سلوك، فهو بهذا يفقد ثقته في نفسه ويفقد ثقة الناس فيه.

نظرة ضيقة

هذا هو تصوير الناس أو هذه هي صورة المجتمع البشري إذا أخذنا بالنظرة الضيقة القاتمة التي تنظر إلى مجرد الخطأ ومجرد الانحراف وسرنا وراء هذه النظرة إلى آخر مدى، ولا شك أن هذه النظرة الضيقة القاتمة لا تعبر تعبيراً صادقاً عن طبيعة الإنسان كفرد ولا عن وضع المجتمع البشري ككل، فإن طبيعة الإنسان كفرد ووضع المجتمع البشري ككل من الدقة والتعقيد بحيث لا تهتدي إلى سبر أغواره وحل رموزه إلا نظرة ذات رحابة وعمق تستوعب بقدر الإمكان جميع الأبعاد وتلج جميع المداخل.

نظرة أقرب إلى الصواب

وللكشف عن هذه النظرة نستطيع أن نقول: أن تقويم أي شخصية يجب أن يعتمد على الصبغة الواضحة في التفكير وعلى الطابع البارز في السلوك، فمن خلال الصبغة يتبدى لون التفكير وظلاله، ومن رسم الطابع يتجلى اتجاه السلوك وغاياته، فالتفكير المصبوغ بصبغة معينة يكون صاحبه محكوماً بهذه الصبغة في جميع آرائه أو في معظمها. والسلوك المطبوع بطابع معين يكون صاحبه موسوماً بهذا الطابع في جميع أعماله أو في معظمها وإذن فتقويم صاحب هذا التفكير أو هذا السلوك لا يرجع في الحكم عليه إلى التفكير أو السلوك في حال واحدة بدا فيها أو في موقف خاص عرض له، بل يرجع في الحكم عليه إلى مجموعة أحوال أو مجموعة مواقف تتضح فيها هذه الصبغة ويتبين هذا الطابع، وبذلك يكون الحكم صائباً ويكون التقويم سليماً.

فكر وفكر

فهذا الذي يتحرى الحق في معظم آرائه ويلتزم بالعدل في معظم أحكامه وينطق بالصدق في معظم أقواله يعتبر من الشخصيات التي تصل إلى القمة في النظر والاعتبار والتقدير والتقويم، إذ تتبدى في تفكيره الصبغة الإلهية ذات اللون السار والظلال البهيجة، ومن أحسن من الله صبغة؟

وهذا الذي يميل إلى الباطل في معظم آرائه ويؤيد الظلم في معظم أحكامه ولا يتورع عن الكذب في معظم أقواله يعتبر من الشخصيات التي تتدلى إلى السفح في النظر والاعتبار، إذ تتبدى في تفكيره الصبغة الجاهلية ذات اللون الكابي والظلال الداكنة. ومن أسوأ من الجاهليين صبغة؟

وبين السفح والقمة يمتلئ بأنواع من الشخصيات تختلف درجاتها في لون هذه الصبغة وظلالها فكلما قربت من السفح كان اللون كابياً والظلال داكنة، وكلما قربت من القمة كان اللون ساطعاً والظلال بهيجة، وكلما توسطت في القرب من السفح والقمة كان اللون باهتاً والظلال غير واضحة.

شخصيات في قمة التفكير

ويتربع إبراهيم عليه السلام على القمة بهذا التفكير المشرق إذ يقول لأبيه وقومه: «إني أراك وقومك في ضلال مبين، وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين، فلما جَنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً، وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكَرون، وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»[1].

شخصيات في سفح التفكير

ويكب على وجهه في السفح بتفكيره المظلم هذا القرشي المتعجرف المعاند الذي يصفه القرآن بهذا الوصف: «إنه كان لآياتنا عنيدا، سأرهقه صعودا، إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر»[2].

عمل وعمل

وهذا الذي يعتمد إقدامه على عمل أو امتناعه عنه على إرضاء خالقه أو التقرب منه يعتبر من الشخصيات التي أخذ سلوكها طابع الصلاح والإصلاح، وهذا السلوك يصل بصاحبه إلى القمة في النظر والاعتبار، إذ تتجلى فيه الغاية السامية والاتجاه الرشيد.

وهذا الذي يعتمد إقدامه على عمل أو امتناعه عنه على اتباع هواه أو العبودية لمطامعه يعتبر من الشخصيات التي أخذ سلوكها طابع الفساد والإفساد، وهذا السلوك

يصل بصاحبه إلى السفح في النظر والاعتبار، إذ تتجلى فيه الغاية السافلة والاتجاه الأعمى.

يقرر هذا المعنى في تصنيف الناس على هذا النحو حديث صحيح نصه: «مثلما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس. فشربوا وسقوا وزرعوا. وأصاب منها طائفة إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله وتفقه ما بعثني الله به فتعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» [3].

نظرة إمام جليل

وينبغي هنا أن ننقل نظرة الشاطبي المستوعبة في العمل، إذ يقول: فاعل الفعل أو تاركه إما أن يكون فعله أو تركه موافقاً أو مخالفاً. وعلى كلا التقديرين إما أن يكون قصده موافقة الشارع أو مخالفته، فالجميع أربعة أقسام:

ـ أحدها أن يكون موافقاً وقصده الموافقة. كالصلاة والصيام والصدقة والحج وغيرها يقصد بها امتثال الله تعالى وأداء ما وجب عليه أو ندب إليه. وكذلك ترك الزنا والخمر وسائر المنكرات يقصد بذلك الامتثال. فلا إشكال في صحة هذا العمل.

ـ والثاني أن يكون مخالفاً وقصده المخالفة. كترك الواجبات وفعل المحرمات قاصداً لذلك، فهذا أيضاً ظاهر الحكم.

ـ والثالث أن يكون الفعل أو الترك موافقاً وقصده المخالفة. وهو ضربان: أحدهما أن لا يعلم بذلك كواطئ زوجته ظاناً أنها أجنبية.، وشارب الجلاب [4] ظاناً أنه خمر، وتارك الصلاة يعتقد أنها باقية في ذمته ناسياً أنه أداها وبرئ منها في نفس الأمر [5]. فهذا الضرب قد حصل فيه قصد العصيان والمخالفة... والثاني أن يعلم بذلك ـ أي يعلم بأن عمله أو تركه موافق، ولكنه يقصد المخالفة [6] ـ ومثاله أن يصلي رياء لينال دنيا أو تعظيماً عند الناس أو ليدرأ عن نفسه القتل [7]، وما أشبه ذلك، فهذا القسم

أشد من الذي قبله. وحاصله أن هذا العامل قد جعل الموضوعات الشرعية ـ التي جعلت مقاصد ـ وسائل لأمور أخرى لم يقصد الشارع جعلها لها، فيدخل تحته النفاق والرياء والحيل على أحكام الله تعالى، وذلك كله باطل، لأن القصد مخالف لقصد الشارع عيناً فلا يصح جملة،.. وقد قال الله تعالى: «إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار»[8].

ـ والرابع أن يكون الفعل أو الترك مخالفاً والقصد موافقاً فهو أيضاً ضربان: أحدهما أن يكون مع العلم بالمخالفة، والآخر أن يكون مع الجهل بذلك. فإن كان مع العلم بالمخالفة فهذا هو الابتداع ـ كإنشاء العبادات المستأنفة، والزيادات على ما شرع ـ ولكن الغالب أن لا يتجرأ عليه إلا بنوع تأويل. ومع ذلك فهو مذموم حسبما جاء في القرآن والسنة... والذي يتحصل هنا أن جميع البدع مذمومة لعموم الأدلة في ذلك، كقوله تعالى: «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء»[9]، وقوله: «وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله»[10]، وفي الحديث: «كل بدعة ضلالة»[11]. وهذا المعنى في الأحاديث كالمتواتر.

وإن كان العمل المخالف مع الجهل بالمخالفة فله وجهان: أحدهما كون القصد موافقاً، فليس بمخالف من هذا الوجه والعمل وإن كان مخالفاً فالأعمال بالنيات. ونية هذا العامل على الموافقة، لكن الجهل أوقعه في المخالفة، ومن لا يقصد مخالفة الشارع كفاحاً لا يجري مجرى المخالف بالقصد والعمل معاً، فعمله بهذا النظر منظور فيه على الجملة لا مطروح على الإطلاق.

والثاني كون العمل مخالفاً، فإن قصد الشارع بالأمر والنهي الامتثال، فإذا لم يمتثل فقد خولف قصده، ولا يعارض المخالفة موافقة القصد الباعث على العمل، لأنه لم يحصل قصد الشارع في ذلك العمل على وجه، ولا طابق القصد العمل، فصار المجموع مخالفاً كما لو خولف فيهما معاً، فلا يحصل الامتثال.

وكلا الوجهين يعارض الآخر في نفسه، ويعارضه في الترجيح، لأنك إن رجحت أحدهما عارضك في الآخر وجه مرجح، فيتعارضان أيضاً. ولذلك صار هذا

المحل غامضاً في الشريعة.

ويتبين ذلك بإيراد شيء من البحث فيه، وذلك أنك إذا رجحت جهة القصد الموافق بأن العامل ما قصد قط إلا الامتثال والموافقة ولم ينتهك حرمة للشارع بذلك القصد، عارضك أن قصد الموافقة مقيد بالامتثال المشروع لا بمخالفته، وإن كان مقيداً فقصد المكلف لم يصادف محلاً فهو كالعبث، وأيضاً إذا لم يصادف محلاً صار غير موافق، لأن القصد في الأعمال ليس بمشروع على الانفراد [12].

الحكم القضائي والحكم المعياري

وهذا التحليل الدقيق من الإمام الشاطبي رحمه الله يضع العامل هدفاً للمساءلة والحكم القضائي أو الفقهي ولو بدر منه العمل مرة واحدة، وجانب المساءلة والحكم جانب أعم من الجانب الذي نركز عليه، وهو جانب التقويم والتقدير لشخصية هذا العامل، فإن هذا الجانب هو الذي يساعدنا في الحكم على العامل من حيث المقارنة أو التاريخ، أي من حيث وضعه موضعه المناسب بين غيره من الشخصيات التي مازالت في عداد الأحياء أو أصبحت في ذاكرة التاريخ.

الشخصيات وتشويه الخصومات

ومما يؤسف له أن الخصومات الدينية والسياسية ـ وكذلك الخصومات الشخصية ـ استطاعت أن تثير زوبعة من الغبار فوق رؤوس شخصيات هي من العظمة بمكان، ولا سيما الشخصيات التي كان لها دور كبير في إعلاء كلمة الإسلام والحفاظ على وحدة أمته، كما استطاعت من جانب آخر أن تضع تيجان العزة والفخار فوق رؤوس شخصيات هي من التفاهة بمكان، ولا سيما الشخصيات التي كانت حياتها أحاديث لاذعة من الغفلة والقصور أو حوادث فاجعة من الهزائم والضياع، فانقلبت بذلك الصور في عيون الناظرين واضطربت المعاني في أفهام الباحثين [13].

هذا العصر ومدى الخطورة على معرفة الحقائق

وإذا كانت الخطورة عظيمة من وراء قلب الحقائق ولا سيما في تقويم

الشخصيات فهي في هذا العصر الذي نعيش فيه أكبر ضرراً وأعظم خطراً، فإن آليات الإعلام وفن الدعاية وإتقان التزوير قد بلغ كل ذلك من الدقة بحيث يصل إلى استعباد العقول والسيطرة على المشاعر والإمساك الآسر بأزمة توجيه الجماهير. ولا أكون مجافياً الحق إذا قلت: إن آليات الإعلام في هذا العصر تستطيع أن تحكم على شخصية بالموت ولو كانت أعمالها ظاهرة باهرة تغمر الأرض بالفضل وتزهر بها الحياة والأحياء، كما تستطيع أن تحكم على شخصية بالحياة ولو كانت أعمالها مغمورة منكورة تكتئب بها الحياة ويبيد منها الأحياء.

من الشخصيات التي قاربت القمة

ولعلنا بهذا المعيار الذي قدمناه للاستفادة به في تقويم الشخصيات ـ حتى لا تضل الأفهام أو تخطئ في هذا التقويم مهما بلغت دقة التزوير أو فن الدعاية أو تطور وسائل الإعلام ـ نستطيع أن نؤكد أن شخصية صلاح الدين قد قاربت القمة في استقامة التفكير وصلاح العمل أو حميد السلوك، فقد كان تفكيره مصبوغاً بصبغة الوحي، كما كان سلوكه مطبوعاً بطابع الحق، ولم تستطع أية صبغة أخرى أن تطغى على تفكيره على الرغم من كثرتها وقوة دعاتها والإلحاح في عرضها، ولم يكن لسلوكه أن يجافي سبيل الحق والعدل على الرغم من المؤامرات والخيانات التي تستنفد حلم الحليم وتستفرغ حتى الثمالة كرم الكريم، وتغرس في النفس أنياب الوحوش ومخالب النسور ومناقير الصقور، وتوقظ فيها ما أمكن من أحط الغرائز وأسوأ الرذائل.

الأدلة الشاهدة بعظمة صلاح الدين

والدارس لهذه الشخصية في منشئها وفي محضنها وفي صباها وفي كهولتها وفي خوض ميادين الحرب وفي تولي شئون الحكم وفي مختلف التصرفات من أقوال وأعمال، الدارس لهذه الشخصية في ذلك كله يرى العظمة بادية عياناً بيانا لا تحتاج إلى أي معاناة في الكشف أو التوضيح، فمن بين السحب الداكنة المصطنعة التي أحيطت بها هذه الشخصية من الموتورين ـ الذين كالوا لها التهم جزافاً ونسبوا إليها اللؤم إجحافاً ـ تتجلى هذه العظمة وهي تشد إليها

العيون بالإعجاب والألسن بالإطراء.

كيف يصبح الفرد دولة؟

والتعبير الذي أشعر أنه يوفي هذه الشخصية حقها في التقويم هو أن صلاح الدين كان ينظر إلى نفسه من خلال المسلمين، ولم يكن ينظر إلى المسلمين من خلال نفسه. وفرق كبير بين الذي ينظر إلى نفسه من خلال من حوله والذي ينظر إلى من حوله من خلال نفسه، فالذي ينظر إلى نفسه من خلال من حوله يسخر جهده وماله من أجلهم دون تمييز بين قريب أو بعيد أو موافق في الرأي أو مخالف له. أما الذي ينظر إلى من حوله من خلال نفسه فإنه لا يهتم على الإطلاق إلا بمن قرب منه لا من بعد عنه وبمن وافقه في الرأي لا من خالفه، واهتمامه بهؤلاء يزداد كلما كانوا أداة طيعة لتحقيق هدفه ونيل مآربه، وهذا أو ذاك إنما يعمل كل منهما لمصلحة نفسه فيما بدا، ولكن مسار كل منهما يختلف عن الآخر ونوال أحدهما لا يبرح الثرى ونوال الآخر لا ينزل من الثريا، فشتان ما بين اليزيدين في الندى.

إن صلاح الدين كان ينظر إلى نفسه من خلال المسلمين، ولذلك آلمه ما بهم من أوجاع فنذر نفسه لعلاج هذه الأوجاع، وآلمه ما بهم من تمزق، فنذر نفسه لرتق هذا التمزق، وآلمه احتلال بلادهم فنذر نفسه لإزالة هذا الاحتلال، وآلمه أن تسلب مقدساتهم فنذر نفسه لإعادة هذه المقدسات. لم يطمع صلاح الدين ـ مع كل ذلك ـ في ملك ولكن سعى إليه الملك، ولم يطمع أن يكون أكثر من قائد فصار قدوة، ولم يطمع أن يكون أكثر من فرد فصار دولة.

الأمم وقادة الفكر

عندما تفعل الأحداث فعلها في أمة من الأمم ويكون من طبيعة هذه الأحداث جعل حاضرها في أسوأ الأوضاع والأحوال وتهديد مستقبلها بالانهيار والزوال، حينئذ يموج أعنف الانفعالات في جمهور الناس، وينبري أهل الفكر فيهم للبحث عن أسباب هذه الأحداث وكيفية مجابهتها للتغلب عليها أو الحد منها أو على الأقل تبصير الناس بأبعادها والمخاطر الحالية والمتوقعة منها.

والأمة الإسلامية بالذات في مركز القمة ومكان الصدارة بالنسبة لهذا العالم الإنساني بأسره، لأنها ذات رسالة خالدة على الزمن، ولأنها في عصورها الزاهرة قادت هذا العالم بسياسة حكيمة وقيادة واعية عادلة وجنبته الكثير من الخطوب والمحن، ولذلك يجب أن يركز أهل الفكر اهتماماتهم الأولى على ما تتعرض له هذه الأمة من أحداث تهدد كيانها أو تسلبها خصائصها أو تدفعها إلى مكان النسيان أو التبعية بعيداً عن مكانة القيادة والصدارة.

ومن حق أي مفكر أن يعرض رأيه في أسباب هذه الأحداث وكيفية مجابهتها بأية وسيلة من وسائل المجابهة، لكن ليس من حقه أن يصادر آراء الآخرين في تكييف هذه الأسباب وتحليلها والتعرف على أبعادها، فالحقيقة بنت البحث، ولم يؤت أحد القدرة على الإحاطة بكل أبعاد الحقائق أو السيطرة الكاملة على كل أسباب العلم وبلوغ قمته، بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ على الرغم من اطلاعه على آيات الله الكبرى في السموات والأرض ـ قال له ربه: «يسألونك عن الساعة أيان مرساها، قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون، قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء» [14].

فالقصور الذاتي للفرد يحجب عنه جانباً أو أكثر من الحقيقة، فإذا انضم إلى هذا القصور شدة الانفعال من الأحداث توارت الحقيقة عن الفكر واحتجب عنه كلها أو معظمها، لأن غمرة الانفعال تعمي بعض الأفكار وتذهب بها في مهامه الضلال بعيداً عن الصواب، أو توقعها في الخبط والخلط فتختلط عليها معالم الخطأ والصواب، أو تدفعها إلى الإسراع في النظر والانتهاء منه دون الروية المطلوبة فيه فتجزم بأحكام عليلة يكسوها رداء السطحية وعدم النضج.

وعلى كل حال يجب ألا تتوقف عجلة التفكير، وأن يستمر كل مفكر في أداء وظيفته القيادية والريادية مرشداً وموجهاً بما انتهى إليه من رأي صائب وما ظهر له من حقيقة واضحة.

وأهم ما ينصح به في أداء هذه الوظيفة هو الإخلاص في أي قضية تكون مدار البحث والتفكير، فلا يكون القصد هو العدوان أو الطغيان أو مقاومة أهل الصلاح والإصلاح أو طمس معالم الخير أو القضاء على مصادر الحق، وأي مفكر يخلص في تفكيره يرشده هذا التفكير ـ في الغالب ـ إلى الحل الأمثل فيما يفكر فيه، ولكن المفكر المسلم عندما يخلص باحثاً في قضايا الأمة الإسلامية التي اختارها الله لقيادة العالم وريادته، ويجهد هذا المفكر نفسه في تحليل الأحداث التي تقع في هذه الأمة والتعرف على أبعادها وكيفية العلاج والإصلاح لا بد أن يهتدي إلى أمثل حل وأهدى سبيل: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين» [15].

وأول فئة من فئات الأمة تستفيد من هذا الفكر المخلص تزداد حاجتها وتشتد إلى أهله هم الذين يمسكون بيدهم زمام الأمور في أمتهم، فهم وإن كانوا يمسكون بيدهم زمام الأمور ويعتبرون رؤوس الناس وسادتهم، فإنهم في أمس الحاجة إلى العقل الرشيد والفكر السديد كي لا يفلت الزمام من أيديهم وكي يستطيعوا التغلب على أية عقبة في مسيرة الانطلاق.

فريضة الجهاد

لا يشك مؤمن أن الجهاد فريضة مقررة وماضية على كل مسلم ومسلمة إلى يوم القيامة، لقوله تعالى: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله» [16]، «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» [17]، «كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون» [18]. وهذ الآيات محكمات لم ينازعها دليل معارض ولم يرد عليها حكم ناسخ.

ومن يشك في هذه القضية أو يشك فيها فعليه أن يراجع نفسه ويتدبر الأمر في روية لعله يدرك هذه القضية ويتبين له وجه الحق فيها، وإلا فهو بين أمرين: إما أن تكون الشبهات قد غلبت على تفكيره فأصبح في عداد الذين في قلوبهم زيغ حيث يغرمون بما يثير الشبهات ابتغاء الفتنة وابتغاء الإكثار من الاحتمالات والتأويلات لإدخال الناس وإغراقهم في الريب والشكوك، وإما أن تكون الرغبات الدنيا قد غلبت على

طبعه فأصبح في عداد الذين في قلوبهم مرض يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون.

والحق أن المسلمين إذا قصروا في فريضة الجهاد كان ذلك إيذاناً بتكالب أعدائهم عليهم لاستئصال شأفتهم وإذهاب ريحهم ومحوهم من الوجود. والتاريخ شاهد صدق على أن المسلمين في عصورهم السالفة عندما يثّاقلون عن الجهاد ويقصّرون في فريضته تتكالب عليهم القوى المعادية لهم وتقتحم عليهم أوطانهم وتدنس لهم ديارهم وتكون لهذه القوى عليهم الكلمة والغلبة والسيادة والسلطان.

فقد حدث في أوائل القرن السادس الهجري أن أحس المسيحيون بدبيب الضعف في نفوس المسلمين وقصور هممهم عن فريضة الجهاد فانطلقوا كالذئاب الجائعة أو الكلاب المسعورة ينهشون ديار المسلمين ويأكلون قطعاً كبيرة من بلادهم، ولم يكن هؤلاء المسيحيون في هجماتهم الشرسة على المسلمين يقفون عند حد أو يقتصرون على هدف معين، بل إن أطماعهم امتدت ولعابهم سال لالتهام العالم الإسلامي كله، بل إن حقدهم الأسود المحرك لهذه الأطماع قد تجلى في تهديداتهم بالاستيلاء على جميع الأماكن المقدسة عند المسلمين وتخريبها عن آخرها وجعلها أثراً بعد عين، فقد صرح أحد ملوكهم في هذا الوقت بأنه سيتجه بجميع قواته إلى مكة والمدينة للاستيلاء عليهما وهدم الحرمين فيهما، ولم يكتف بهذا التهديد الوقح، بل تناول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بألفاظ وقحة أثارت مشاعر المسلمين وفجرت غضبهم وسخطهم [19].

وفي هذه الحال التي طفح فيها الكيل وبلغ السوء بالمسلمين فيها الذروة ـ فقد أصبحوا في حال يرثى لها من الانكسار والذلة والتشتت والضياع ـ لم يكن في متناول أيديهم إلا أن يجأروا بالشكوى ويتوجهوا إلى ربهم ملحين بالدعاء أن يمد يده إليهم بقائد مسلم ملهم يأخذ لهم بالثأر من المسيحيين ويرجع بالكرة عليهم ويرهقهم بالهوان والذلة ويسترد منهم النصر الذي انتزعوه والبلاد التي سلبوها، وقد سمع الله شكواهم وأجاب دعاءهم بعد أن صهرتهم المحن فقصدوه بالشكوى وألحوا عليه في الدعاء،

وكان أن قيّض الله لهم هذا القائد الملهم نور الدين زنكي، فاستطاع بحسن قيادته وصدق جهاده أن يشفي صدور المؤمنين وأن يعيد إليهم الأمل الذاهب والحق السليب، وشارك في هذا الجهاد العظيم صلاح الدين الأيوبي. وبعد أن أفضى إلى ربه نور الدين استقل بالقيادة صلاح الدين فاستكمل أسباب الظفر وأمسك بكلتا يديه أزمَّة النصر واستطاع بمن يؤازرونه من المجاهدين المخلصين أن يسترد بعون الله للمسلمينَ مكانتهم ويحرر لهم جميع ما انتزع من أيديهم ويكسر شوكة أعدائهم ويحيط بهم في عقر دارهم.

العلماء المتجردون

لكن القائد الملهم له نفس كبيرة لا يشتد عودها ولا تستكمل نموها لتصل إلى درجة كبيرة في النضج إلا بين نفوس كبيرة لا صغيرة، وهذه النفوس الكبيرة ليست إلا العلماء المتجردين الذين لا يبخلون بمال ولا علم ولا نفس ولا أبناء في سبيل الله، هم الذين كبروا على الدنيا فلم يذعنوا لمغرياتها ولا يتكالبوا على متاعها، هم الذين لم ينافقوا الناس بأعمالهم ولم يدعوا ما ليس فيهم، وقد تكون هذه النفوس الكبيرة ذات نسبة قليلة في مجتمعات المسلمين، إلا أن الأمة الإسلامية ـ في مجموعها ـ لا تخلوا من هؤلاء على مدى العصور، فإن الله قد وصف هذه الأمة بالخيرية والأفضلية على جميع الأمم ـ وهو وصف ثابت دائم لا يختص بعصر دون عصر ـ وذلك في قوله تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس»[20]، ولقوله صلى الله عليه وسلم: «ولا تزال طائفة من أمتي قائمة على الحق حتى يأتي وعد الله»[21].

ولا شك أن مسئولية انحدار أمة أو رقيها يرجع إلى جميع طوائفها، وأول طائفة تتحمل هذه المسئولية إنما هي طائفة العلماء، فإنهم إذا انحدروا انحدرت تبعاً لهم سائر الطوائف، وإذا ارتقوا ارتقى بهم سائر الطوائف، ثم هم المنارات ـ أو الذين يظن فيهم أنهم المنارات ـ التي يقصدها الناس عند المدلهمات، أفلا تكون هذه المنارات قوية الضوء موضحة معالم الطريق أمام القاصدين بدل أن تكون خافتة الضوء تعمي الطريق على السائرين فيصيروا في عداد الضالين أو يرجعوا بعد لأي

خائبين؟

منشأ صلاح الدين

والحديث عن صلاح الدين يكون حديثاً مبتوراً أولا يفي بقدره ما لم يتناول أصله ومنشأه، فقد نشأ صلاح الدين في أسرة ذات نبالة وعراقة وشرف. وكانت هذه الأسرة وأسرة نور الدين زنكي من الأسر ذات المكانة عند سلاطين السلجوقيين، فإن هاتين الأسرتين قد حباهما الله بقدر كبير من العلم والفضل فكان منهم علماء ذوو مكانة عالية في مجال التربية، وهذا ما دفع خلفاء السلاجقة إلى أن يعهدوا بأبنائهم إلى العلماء الأفاضل من هاتين الأسرتين لتربيتهم.

وقد درج صلاح الدين منذ نعومة أظفاره في هذه البيئة المتميزة أو التي حازت المجد من جميع أطرافه، فهو قرين أبناء السلاطين كما أنه يتغذى بلبان العلم والفضل أو بأصولهما من علماء كبار ذوي مكانة عالية في العلم والفضل، ولذلك تشبعت نفسه من أسمى العناصر وأفضل المكونات من سمو البيئة ونبالة التربية حتى أصبح في مكانة تستحق الاحترام والتوقير بين أقرانه.

وعندما انتقلت أسرة صلاح الدين من جنوب أذربيجان إلى شمال العراق لم تذهب بعيداً عن أسرة نور الدين زنكي، فقد لازمت هذه الأسرة الكريمة، ودفعها إلى هذه الملازمة ما كان بينهما من علاقات حميمة قوت وتقوي أواصر الود الخالص والأخوة الصادقة. بل إن الهدف السامي النبيل الذي يشغل أفكارهما ويتمحور حوله عواطفهما وآمالهما قد جعلهما متلاحمين بحيث لا تستطيع أسرة منهما أن تنفك عن الأخرى، هذا الهدف السامي النبيل هو الجهاد في سبيل الله إلى آخر نفس لإنقاذ المسلمين من الهم الذي دهمهم والكرب الذي خيم عليهم والخطر الذي أحدق بهم، فقد اقتحم الصليبيون ديارهم واستباحوا كل شيء في بلادهم ودمروا المساكن والمساجد وخربوا المصانع والمزارع.

وإلى جانب هذه المكونات التي اتسقت في نفسية صلاح الدين ونشأ من صغره عليها كانت هناك مكونات أخرى تصبغ هذه النفسية وتصوغ هذا المنشأ، فقد

كان الجو العام من حوله تثور فيه رياح عاتية تنطلق من جوانب متعددة، وتشتد هذه الرياح العاتية أحياناً فتصبح عواصف مدمرة، هذه الرياح العاتية أو العواصف المدمرة تتمثل في الإتجاهات الفكرية المتضاربة والاختلافات المذهبية المتشاحنة والصراعات السياسية المتطاحنة، ومن خلف هذه الاتجاهات والاختلافات والصراعات يقوم بالأدوار الرئيسية بإتقان القرامطة [22] والحشاشون [23] والرافضة [24] وإخوان الصفا [25]. والعجيب أن هؤلاء جميعاً يستغلون الدين في القيام بأدوارهم ولا يتورعون عن ممارسة أي عدوان والانطلاق للتحطيم والتدمير والتخريب في بلاد المسلمين حتى يصلوا إلى مآربهم ويحققوا أطماعهم، بل إن منهم من ساعد مساعدة كبيرة أعداء المسلمين على التوغل في بلاد الإسلام.

والمنطقة التي نشأ فيها صلاح الدين هي التي كانت تموج بهذه الاتجاهات والاختلافات والصراعات، أو بتعبير أكثر دقة هي التي كانت ضحيتها، فقد نبتت منها واستفحلت فيها ثم انتشرت بعد ذلك هنا وهناك في أقطار شتى من بلاد المسلمين.

وأي إنسان يعيش في هذه المنطقة المائجة لا بد أن ينطبع نفسه منذ منشئه بانطباعات حادة تتولد عنها مشاعر خاصة تدفعه دائماً إلى أن يفعل شيئاً يجنب نفسه والبشرية عامة ـ إن كان ذا نفس كبيرة كصلاح الدين ـ مسلسل العواقب الوخيمة المتوقع فجائعها ونكباتها، ويظل الاهتمام يشتد والهموم تكبر منذ المنشأ حتى تصير شغله الشاغل وهمه الواصب فلا ينفك عنه ولا يخلص منه.

كل هذه المكونات ذات الاهتمام الكبير التي تجمعت وامتزجت منذ المنشأ في هذه النفس الكبيرة ـ نفس صلاح الدين ـ قد بلغت به إلى أن تكون نداء يدوّي في داخله بالعمل الجاد الدائم لإنقاذ هذه الأمة، وتمثل هذا النداء القوي المدوّي في الاشتغال بالجهاد والهيام فيه واللهج به، يعبر عن ذلك ابن شداد بقوله: «ولقد كان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد أو في الإرفاد لصدق وبر في يمينه، ولقد كان الجهاد وحبه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه

استيلاءً عظيماً بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا كان له اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه. ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده وسكنه وسائر ملاذه، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة. ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ذات ريح شديد على برج عكا، فلو لم يكن في البرج وإلا قتلته، ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماماً. وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد أو يذكر شيئاً من أخبار الجهاد. ولقد ألف له كتب عدة في الجهاد. وأنا ممن جمع له فيه كتاباً جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه وكل حديث روي في فضله، وشرحت غريبها. وكان رحمه الله كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل عز نصره» [26].

ما أعظم هذه النشأة وما أرفعها! وما أعظم هذه النفس التي تكونت من هذه النشأة وما أرفعها! وما أعظم الأمة التي يخرج منها مثل هذه النفوس العظيمة وما أرفعها! إن الأمة التي تصاغ نفوس بعض أبنائها هذه الصياغة وتنشأ هذه التنشئة حتى تصل إلى هذه الدرجة الرفيعة من المشاعر العظيمة أمة لا يأفل نجمها ولن تموت أبداً.

المحضن بعد المنشأ

وهذا المنشأ الكريم كان ينتظره محضن كريم، فإن مراحل إتمام النضج لهذه الشخصيات ذات المستوى الرفيع والمنشأ الكريم لا بد أن تتواءم وتتوافق في درجات السمو والرفعة، بل تكون على أتم التواؤم والتوافق في هذه الدرجات. والنبات الزكي لا يترعرع إلا في تربة أكثر خصوبة وفي بيئة أطيب هواء وأعدل جواً، فإذا وضع في تربة جدبة وبيئة قاحلة ذوى واضمحل وصوّح نبته. وإذا وضع في تربة أقل خصوبة وبيئة أقل اعتدالاً لم يكن جيد المحصول ولا طيب الثمرة.

وقد هيأ الله هذا المحضن الكريم لصلاح الدين، هذا المحضن الذي ينتظره ليتم فيه إنضاج شخصيته وإكمال مواهبه، إنه مصر التي كان عزوفاً عنها غير حريص على الذهاب إليها لما لقيه في بعض سفراته إليها من كبد ومعاناة.

ونترك لابن الأثير تصوير الأحداث التي ساقت صلاح الدين إلى مصر، يقول

ابن الأثير: «لما وردت كتب العاضد[27] على نور الدين تستغيث به من الفرنج ويطلب إرسال العساكر أحضر صلاح الدين وأعلمه الحال فقال: تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه ليحضر وتحثه أنت على الإسراع فما يحتمل الأمر التأخير. ففعلت وخرجنا من حلب، فلما كنا على ميل من حلب حتى لقيناه قادماً في هذا المعنى، فأمره نور الدين بالمسير، فلما قال له نور الدين ذلك التفت عمي إلي فقال لي: تجهز يا يوسف. فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها، فقد قاسيت بالإسكندرية وغيرها مالا أنساه أبداً. فقال عمي لنور الدين: لا بد من مسيره معي، فتأمر به. فأمرني نور الدين، وأنا أستقيل، وانتهى المجلس. وتجهز أسد الدين. ولم يبق غير المسير، فقال نور الدين: لا بد من مسيرك مع عمك، فشكوت له الضائقة، فأعطاني ما تجهزت به، فكأنما أساق إلى الموت، فسرت معه وملكها، ثم توفي فملكني الله تعالى مالا كنت أطمع في بعضه»[28].

لم يكن يتوقع صلاح الدين أن مصر ستكون محضنا كريماً تتجلى فيه قدراته ومواهبه ويأخذ فيه مداه منشؤه الكريم، ولم يكن يتوقع أن هذا المحضن الذي تتجلى فيه قدراته ومواهبه سيكون منطلقه لتحقيق أجل الأعمال وأعظم الانتصارات، ولم يكن يتوقع أنه سيكون سلطاناً مرهوب الجانب في العالم بأسره مسموع الكلمة مطاع الأمر في سائر بلاد المسلمين. ولذلك تكرر رفضه في حواره مع نور الدين زنكي ـ الذي كان حريصاً على ذهابه إلى مصر ـ ولم يقبل الذهاب إليها مع عمه أسد الدين إلا كارهاً وعلى مضض. وكأنما يساق إلى الموت ـ على حد تعبيره ـ فقد يكره المرء أمرا وقد ادخر الله فيه من الخير ما لا يدرك مداه « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم»[29]، ويشبه هذا ما كان من أمر فريق من الذاهبين للاستيلاء على قافلة قريش ثم الاشتباك معهم في المعركة الحاسمة التي قضت على هيبة الشرك والمشركين في أوساط العرب جميعاً، وهي غزوة بدر، فقد قال الله في موقف هذا الفريق «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون، ويجادلونك في الحق بعد ما تبين، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون»[30].

والأماكن أو المحاضن كما تعمل عملها في تنمية مشاعر الخير وتجلية مواهب العظمة تعمل عملها كذلك في تنمية نوازع الشر وتجلية مواقف البغي، فهناك من الأماكن ما تأصلت فيه الخيرات وتوطنت فيه البركات: «إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً» [31]، «إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله» [32]، «في البقعة المباركة من الشجرة» [33]، وهناك من الأماكن ما تأصل فيه الشر وتوطن فيه البغي، وهي الأماكن التي أصبحت ملجأ للكفر ومرتعاً للشر ومصدراً للبغي والعدوان: «ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها» [34]، «إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم؟ قالوا: كنا مستضعفين في الأرض. قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا» [35].

ولعل مصر من هذه الأماكن التي تأصلت فيها الخيرات وتوطنت فيها البركات، ولذلك كانت المحضن الكريم لهذه الشخصية الكريمة التي مجّدها التاريخ ـ شخصية صلاح الدين ـ فأهلته لهذا المجد وهيأت له أسباب الرفعة والذكر، بل لا يكون مغالياً من يقول إنها كذلك، فقد أشار القرآن إلى هذا ولفت النظر إليه عندما أوحى الله إلى موسى وأخيه هارون ـ عليهما السلام ـ بتبوئ مصر والتوطن فيها، وذلك في قوله تعالى: «وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً، واجعلوا بيوتكم قبلة، وأقيموا الصلاة، وبشر المؤمنين» [36].

وأرى أن مثل هذه الإشارات القرآنية والدلالات أو الوقائع التاريخية التي توضحها يجب أن تكون محل اعتبار عند أئمة الفكر وأئمة الحكم معاً، فيعطى لهذه الأقاليم الإسلامية المشار إليها وزنها الصحيح في الجانب الخاص بها، وتتركز الأنظار ـ أنظار المسلمين في العالم الإسلامي بأسره ـ على أي إقليم يحمل طابعاً خاصاً أشار إليه القرآن وأيدته وقائع التاريخ ـ بل يكفي مجرد الإشارة القرآنية ـ لتوجيه الاهتمام الشديد وبذل الجهد الكافي للحفاظ على طابع هذا الإقليم أن تمحوه أيادي أعداء الإسلام أو أن يلوثوه، ولتهيئة هذا الإقليم ليكون دائماً ملبياً لحاجة أي مسلم في الاستفادة من هذا الطابع الذي خصه الله به، وهو بالنسبة لمصر تهيئتها دائماً لتكون المحضن الذي تتبلور فيه قدرات القيادات وتتجلى مواهبهم في خدمة الإسلام ورفع رايته خفاقة على العالمين.

وليس القصد ـ كما يتضح ذلك من سياق عباراتنا ـ أن نفضل إقليماً على إقليم أو بلداً على بلد من بلاد المسلمين، فكل إقليم أو بلد من بلاد المسلمين له ميزته في جانب خاص من الجوانب يجب التركيز عليها للاستفادة منه إلى آخر مدى. أما الأماكن المقدسة فهي صاحبة الفضل الأول والدائم على جميع بلاد الإسلام وأقاليمه: إذ في ظلها وتحت هيمنتها تستمد الفضل جميع هذه البلاد وهذه الأقاليم ولو كانت في أقصى المشرق أو أقصى المغرب على سواء.

عبقرية فذة ومواهب متميزة

وإذا وضع صلاح الدين في مجال المقارنة مع شخصيات تاريخية أخرى ـ تجمعهم به الأوصاف والأهداف والأحداث والمآثر والأمجاد ـ فإن صلاح الدين يبزهم جميعاً ويتفوق عليهم، فقد أجمع المؤرخون والباحثون، كما أجمع كل من له نظر ثاقب وفكر ناضج في تقويم الشخصيات التي جمعت بين العبقرية في ميدان الحرب والحكمة في مجال السياسة على أن شخصية صلاح الدين من الشخصيات الفذة في عبقريتها المتميزة في مواهبها.

ففي المجال العسكري أعلنت عبقريته عن نفسها في معاركه حربية متعددة، كان فيها من أمهر القادة الذين اعترف لهم التاريخ في إجلال بالحنكة والحكمة، حنكة الحرب وحكمة القيادة. لقد كانت خطة صلاح الدين في معاركه تقوم على مبدأين يأخذ كل منهما مجاله في التطبيق بحسب ظروف كل معركة، وهما مبدأ (الاستراتيجية) ومبدأ (التكتيكية)، فمبدأ (التكتيكية) يختص بميدان المعركة وكيفية التغلب على العدو بحسن التدبير والتنظيم ومباغتة هذا العدو في الوقت المناسب. ومبدأ (الاستراتيجية) يتعدى ميدان الاشتباك في المعركة إلى مصادر القوة التي يمكن أن تمد هذا العدو بما يحتاج إليه من مدد. ولعل صلاح الدين كان يعطي بسلوكياته الرشيدة في تطبيق هذين المبدأين دروساً نموذجية للصليبيين يدفعهم بها إلى الاقتداء به والسير على طريقته، ولكنهم بحكم طبيعة العدوان فيهم لم يقيموا لهذه الدروس وزناً ولم يرفعوا لها رأساً، وانطلقوا يدمرون ويخربون ويسفكون دماء النساء والأطفال والشيوخ والعاكفين في مساجدهم والصانعين في مصانعهم والزارعين في مزارعهم، فكان النصر آخر الأمر للحنكة والحكمة.

وللأسف الشديد سارت صليبية العصر الحديث على نهج صليبية العصور الغابرة دون أن تستفيد شيئا من تاريخ أبطال العالم الإنساني عامة والعالم الإسلامي على وجه الخصوص ـ الذين هم الأبطال المسلمون ـ عبر عصور الإسلام ، يتقدمهم سيد الأبطال محمد صلى الله عليه وسلم [37]. وسير الصليبية في هذا العصر على هذا النهج تحت عنوان (الاستراتيجية) ينذر البشرية بشر مستطير، إذ تملك في يدها الآن ما تم اختراعه وما هو في طريق الإتمام من وسائل الدمار الشامل، وما نجازاكي وهيروشيما ـ ضحية الحرب العالمية الثانية ـ عنا ببعيد.

وفي المجال الإداري أعلنت عبقريته عن نفسها في مجالات متعددة من الإصلاح، وكان هذا الإصلاح لجوانب مهمة في حياة جميع المواطنين، فقد كان التعليم محصوراً في دائرة ضيقة محدودة من الفكر، ولم يأخذ التعليم حظه من الانطلاق والسعة والشمول، كما أن الفكر لم يأخذ حظه من الإرواء والإشباع والإمتاع. وجاء صلاح الدين ففتح الأبواب على مصاريعها للتعليم وأنشأ المدارس لتحقق لكل طالب علم بغيته، وأزال أي عوائق أو حدود تحد من الازدياد من العلم والتبحر فيه، وعلى الرغم من أن الأزهر قد بني أساساً كمؤسسة علمية تحقق هدفاً علمياً محدوداً ـ يناقض ما يهدف إليه صلاح الدين من انفتاح على آفاق العلم ـ فإنه أبقاه منارة علمية وجعل منهجه العلمي هو الانفتاح على هذه الآفاق لا الانحصار والانغلاق.

وكان القضاء كالتعليم قد حصر في دائرة محدودة من فقه الفصل في الخصومات وحل المنازعات والتعرف على ملامح الحق بين المتخاصمين في حدود أو نطاق مذهب معين، فجاء صلاح الدين فأفسح هذه الدائرة ليكون القضاء والمتقاضون على اطلاع أوسع وإحاطة أرحب من الحصيلة الفقهية الثرية التي كانت نتاج جهود ضخمة بذلها الفقهاء على اختلاف اتجاهاتهم النظرية وأصولهم الفقهية. فإن تحقيق العدالة يحتاج إلى رحابة الفكر وعمق النظرة. ومعلوم أن أنظار الفقهاء قد تختلف مستوياتها من حيث تحري الحق وتحقيق العدل، فقد أثنى الله ـ جل شأنه ـ على داود وابنه سليمان عليهما السلام بتحريهما الحق وتحقيقهما العدل في قضية عرضت عليهما بين متخاصمين، ولكنه ـ جل شأنه ـ خص سليمان بمزيد من التقدير لعلو كعبه في تحقيق العدل برحابة فهمه في فقه هذه القضية: «وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث

إذ نفشت فيه غنم القوم، وكنا لحكمهم شاهدين، ففهمناها سليمان، وكلاً آتينا حكماً وعلماً» [38]، وكلما انداحت مساحة النظر واتسع أفق الفهم كان الوصول من أقرب طريق للحكم الذي يحق الحق ويقر العدل وينهي أعنف المنازعات ويقضي على ألد الخصومات.

وكانت بطانة الحكم من أفسد البطانات وأسوئها، حيث كان الأشرار من مجندي النفاق والدجل والتسلق هم أصحاب الحظوة عند الحاكم، ولذلك كانت مكانة الدولة تهبط دائماً إلى الحضيض. فقد طم فيها الفساد وعم الخبال وأغرى ذلك أعداءها بالتآمر عليها، ولم يعد لنداء القرآن الذي يحذر من الخبال والوبال وسوء الحال ـ هذا النداء الذي يطرق مسامع المسلمين في قوة في قوله تعالى: «يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً، ودوا ما عنتم، قد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون» [39] ـ لم يعد لهذا النداء أي أثر في تنبيه الحاكم وتحذيره من مخاطر بطانته، إلى أن جاء صلاح الدين ـ وكان قد طفح الكيل من فساد بطانة الحكم ـ فسلط أقوى المبيدات ليطهر سدة الحكم مما عشش في أركانها من حشرات في صور آدمية، وقرب منه أفاضل العلماء من ذوي الهمم العالية والنفوس الصافية والقلوب المؤمنة والأرواح المتجردة [40].

وكانت إدارة الأقاليم تحت سيطرة أناس لا يعرفون من أمرها إلا أنها إقطاعيات خاصة بهم وكل ما فيها من مواطنين عبيد لهم، فعلى هؤلاء المواطنين أن يكدوا ويكدحوا دون أن يأخذوا قسطاً من الراحة لتعود ثمرة كدهم وكدحهم إلى جيوب هؤلاء السادة، ولا يبقى بطبيعة الحال إلا الفتات الذي يكاد يسد رمقهم ويقيم أودهم ليستمروا في الكد والكدح لخدمة هؤلاء السادة، ولم يعد يشعر أحد في أي إقليم من الأقاليم إلا بأنه تابع أو خادم لمن يدير هذا الإقليم ويفرض سيطرته عليه، إلى أن جاء صلاح الدين فطهر الأقاليم من هؤلاء الذين أذلوا المواطنين وامتصوا دماءهم وأحل محلهم من يتوسم فيهم أنهم لا يألون جهداً في تحقيق مصالح الناس وقضاء مآربهم وهم يشعرون أنهم خدام لهم لا مخدومون وأنهم إخوة لهم لا سادة عليهم، فشعر الجميع بأنهم يعيشون حقاً في بلادهم وأن خيرات هذه البلاد هي حقوقهم وليست غُنماً لغيرهم.

وليس من شك أن مثل هذه الإصلاحات الجذرية تعليمياً وقضائياً وسياسياً وإدارياً ـ وغيرها من الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية ـ تعرض صاحبها لمخاطر جمة ممن مردوا على الفساد والاختلال والاضطراب في طول البلاد وعرضها ولا يستطيعون أن يعيشوا إلا في جو يتنفسون فيه روائح الفساد والاختلال والاضطراب.

كما تدل هذه الإصلاحات في الوقت نفسه على أن صلاح الدين قد تحمل الكثير وهو يقوم بها في جرأة تمتزج بالرحمة والإخلاص والصبر وبعد النظر.

ابن الأثير وصلاح الدين

ولا أدري هل كان ابن الأثير المؤرخ ـ وهو معاصر لصلاح الدين ـ يضمر في نفسه شيئا عندما فرضت عبقرية هذا القائد المظفر نفسها على الجميع ودانوا لها عن طواعية دون منازع؟ قد يكون هذا الاحتمال وقد يكون خلافه، لكن الاحتمال الأول هو الأرجح في رأيي، وأسوق على ذلك دليلين: دليلاً من مؤرخ معاصر يعلق على بعض الأحداث التي ساقها ابن الأثير ويشتم منها التهمة لصلاح الدين، ودليلاً يؤخذ من سرد ابن الأثير للمعارك التي خاضها نور الدين والمعارك التي خاضها صلاح الدين.

أما الدليل الأول ـ وهو تعليق أبي شامة على ابن الأثير ـ فهو كما يلي: «يقول ابن الأثير: وكان نور الدين قد شرع بتجهيز السير إلى مصر لأخذها من صلاح الدين، لأنه رأى منه فتوراً في غزو الفرنج من ناحيته، فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر ليتركها بالشام لمنعه من الفرنج ليسير هو بعساكره إلى مصر. وكان المانع لصلاح الدين من الغزو الخوف من نور الدين، فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه، فكان يحتمي بهم عليه! ولا يؤثر استئصالهم! وكان نور الدين لا يرى إلا الجد في غزوهم بجهده وطاقته، فلما رأى إخلال صلاح الدين بالغزو وعلم غرضه تجهز بالمسير إليه، فأتاه أمر الله الذي لا يرد» [41].

ويرد على ذلك أبو شامة قائلاً: «ولو علم نور الدين ماذا ادخر الله تعالى للإسلام من الفتوح الجليلة على يدي صلاح الدين من بعده لقرت عينه، فإنه بنى على

ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها، رحمهما الله تعالى» [42].

وأما الدليل الثاني فهو إظهار صلاح الدين في صورة غير مشرفة، وننقل هنا كذلك عن ابن الأثير وهو يصف معركة إنهزم فيها نور الدين ومعركة أخرى إنهزم فيها صلاح الدين ليتبين الفرق في أسلوبه عند عرض هاتين المعركتين، يقول ابن الأثير عن نور الدين: «في سنة 558 هـ إنهزم محمود بن زنكي من الفرنج تحت حصن الأكراد ـ وهي الواقعة المعروفة بالبقيعة تحت حصن الأكراد ـ محاصراً له وعازماً على قصد طرابلس ومحاصرتها. فبينما الناس يوماً في خيامهم وسط النهار لم يرعهم إلا صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه حصن الأكراد، وذلك أن الفرنج اجتمعوا واتفق رأيهم على كبسة المسلمين نهاراً، فإنهم يكونون آمنين. فركبوا من وقتهم ولم يتوقفوا حتى يجمعوا عساكرهم، وساروا مجدين فلم يشعر بذلك المسلمون إلا وقد قربوا منهم، فأرادوا منعهم فلم يطيقوا ذلك، فأرسلوا إلى نور الدين يعرفونه الحال، فرهقهم الفرنج بالحملة، فلم يثبت المسلمون وعادوا يطلبون معسكر المسلمين ـ والفرنج في ظهورهم ـ فوصلوا معاً إلى العسكر النوري، فلم يتمكن من ركوب الخيل وأخذ السلاح إلا وقد خالطوهم فأكثروا القتل والأسر... ونجا نور الدين بنفسه ونزل بالقرب من حمص وبينه وبين المعركة أربعة فراسخ، وتلاحق به من سلم من العسكر. وقال له بعضهم: ليس من الرأي أن نقيم هنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا فنؤخذ ونحن على هذه الحال فوبخه وأسكته وقال: «إذا كان معي ألف فارس لقيتهم ولا أبالي. والله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأري وثأر الإسلام» [43].

ويقول عن صلاح الدين: «في سنة 572 هـ سار صلاح الدين بن يوسف بن أيوب من مصر إلى ساحل الشام يقصد غزاة بلاد الإفرنج، وجمع معه عساكره وجنوده، فلم يزالوا يجدون السير حتى وصلوا إلى عسقلان في الرابع والعشرين من جمادى الأولى، فنهبوا وأسروا وقتلوا وأحرقوا في تلك الأعمال مغيرين. فلما رأوا أن الفرنج لم يظهر لهم عسكر ولا اجتمع لهم من يحمي البلاد من المسلمين طمعوا وانبسطوا وساحوا في الأرض آمنين. ووصل صلاح الدين إلى الرملة عازماً على أن

يقصد بعض حصونهم ليحاصره، فوصل إلى نهر فازدحم الناس للعبور، فلم يرعهم إلا والفرنج قد أشرفت عليهم بعتادها وأبطالها. وكان مع صلاح الدين بعض العسكر، لأن أكثرهم تفرقوا في طلب الغنيمة. فلما رآهم وقف لهم فيمن معه، وتقدم بين يديه محمد ابن أخي صلاح الدين فباشر القتال بنفسه بين يدي عمه، فقتل من أصحابه جماعة وكذلك من الفرنج، وكان لقي الدين ولد اسمه أحمد ـ وهو من أحسن الشباب أول ما تكاملت لحيته ـ فأمره أبوه بالحملة عليهم، فحمل عليهم وقاتلهم وعاد سالماً بعد أن أثر فيهم أثراً كبيراً، فأمره بالعودة إليهم ثانية، فحمل عليهم فقتل شهيدا ومضى حميداً رحمه الله ورضي عنه. وكان أشد الناس ذلك اليوم الفقيه عيسى رحمه الله. وتمت الهزيمة على المسلمين. وحمل بعض الفرنج على صلاح الدين فقاربه حتى كاد يصل إليه، فقتل الفرنجي بين يديه، وتكاثر الفرنج فمضى منهزماً يسير قليلاً ويقف ليلحقه العسكر، إلى أن دخل الليل فسلك البرية إلى أن مضى في نفر يسير إلى مصر»[44].

ويبدو واضحاً من سرد هاتين المعركتين أن ابن الأثير لا يريد أن يظهر صلاح الدين في صورة مشرفة كهذه الصورة التي اهتم أن يضفيها على نور الدين. هذا إن لم نزد على ذلك أنه قد أراد بهذا السرد أن يضفي على صلاح الدين قوادح منكرة تحط من هيبته وتقلل من قيمته كقائد معركة أو حتى كمحارب أو مجاهد في جيش يحارب أو يجاهد لصد أعداء الإسلام عن دار الإسلام، فهو لا يتصف بالحميّة التي يتصف بها نور الدين، إذ لم يحلف بالثأر من الصليبيين عندما إنهزم أمامهم كما حلف نور الدين، وجنود صلاح الدين فرق تجيد السلب والنهب وتشتغل بالحرق والأسر على عكس جنود نور الدين الذين لم يذكر عنهم سلب أو نهب أو أسر أو تحريق، وصلاح الدين عندما ينسحب من معركة إنهزم فيها لا ينسحب حسب خطة محكمة تقلل من خسائره في الأفراد والمعدات كما هو واجب أي قائد يحرص على جيشه ويحافظ على هيبته القيادية وسمعته العسكرية، بل ينسحب دون أية خطة مما يقضي على معظم جنوده ومعداته، على عكس نور الدين.

وواقع الأمر بالنسبة لصلاح الدين كان غير ذلك، وإلا لما أحرز هذه الانتصارات

الكبيرة التي يشهد له بها التاريخ ويسجلها بفخر واعتزاز.

اتهامات وانتقادات ظالمة

ولقد وجهت إلى صلاح الدين اتهامات وانتقادات شديدة وبالغة تنال من أي شخصية مهما كان قدرها ومهما كان أمرها. وشخصية صلاح الدين قد اكتسبت الكثير من المفاخر والأمجاد، وتميزت بالعديد من الفضائل والشمائل. ومثل هذه الشخصية كما تحيط بها أضواء الثناء والمدح تتركز عليها عيون الحسد والحقد. ولا شك أن عيون الحسد والحقد ستريش لها سهاماً مسمومة من الاتهامات والانتقادات وتصوبها في الصميم.

وليست هذه العيون الحاسدة والألسنة الحاقدة هي التي تتولى وحدها هذه المسئولية في مجال الاتهامات والانتقادات والتشويه والتشهير، فإن أعداء الإسلام بطبيعة الحال ـ وقد ذاقوا الهوان على يديه ولعقوا مرارة الهزيمة الساحقة، وانكسرت شوكتهم بعد معارك طاحنة وحروب جائحة مع جيوشه المظفرة ـ لا يمكن أن تصفو قلوبهم له ولا أن تستريح لهم أعصاب أو يهدأ لهم خاطر إلا بأن يتصيدوا أي وسيلة لتجريح شخصيته وتشويه سيرته حتى لا يعترف له بفضل أو قدر وحتى لا يكون نموذجاً من النماذج الفريدة الرائدة لصفوة الرجال والأبطال عبر الأجيال إن لم يستطيعوا أن يمحوه من ذاكرة الناس وذاكرة التاريخ [45].

والحق أن خطة الحاقدين على صلاح الدين كانت محكمة في توجيه سيل من الاتهامات أو إحاطته بشبكة من الانتقادات، فقد شوهوا سيرته من جوانب متعددة: شوهوا سيرته في سلوكه الخاص، وسيرته في سلوكه مع الناس، وأول هؤلاء الناس نور الدين زنكي الذي أغدق عليه من فضله وكان ولي نعمته ـ على حد قولهم ـ فقلب له صلاح الدين ظهر المجن، ثم تقريبه لشيعته من أبناء بلده، ثم تفرقته بين الأكراد والمصريين، ثم اعتدائه على العلماء بغير حق.

وتشويه سيرته في سلوكه الخاص يتمثل فيما يروي عن شربه الخمر ومعاقرته لها زمناً ليس بالقصير قبل ذهابه إلى مصر. ومثل هذه الشخصية التي كان للخمر تأثير

عليها بهذه الصورة لا تستحق مثل هذا التقدير أو التمجيد الذي يضفيه عليها الناس أو يذكره لها التاريخ.

وتشويه سيرته في سلوكه مع نور الدين زنكي ـ في تنكره لأفضاله ونعمه عليه وإعداد العدة للقضاء عليه إذا نازعه في سلطانه على مصر ـ تظهره بمظهر هؤلاء الأفاقين أصحاب المطامع وطلاب الدنيا الذين تسيرهم أهواؤهم وتتحكم بهم مطامعهم ولا يقيمون اعتباراً لأي قيمة سامية ولا لأي خلق نبيل.

وتشويه سيرته في سلوكه بتقريبه طائفة دون سواها من أبناء بلده وإغداق العطاء على هؤلاء الأقرباء يجعله كثير الارتياب فيمن حوله لا يطمئن إلى أحد منهم، ولذلك يعمد إلى أقربائه ليحتمي بهم وفيهم فيغدق عليهم الهبات ويجزل لهم العطايا.

وتشويه سيرته بالتفرقة بين الأكراد والمصريين يتمثل في حرمان المصريين من أي عطاء وتنفيذ حكم الإعدام فيمن تآمر منهم على قتله مع العفو عمن شاركوهم في هذا التآمر من الأكراد، وهذا يجعله في نظر الجميع مجافياً للعدالة مقراً للظلم مؤيداً لحكم العصبية ومغلباً له على حكم الإسلام، ومثله لم يكن يصلح لحكم بلد إسلامي كمصر.

وتشويه سيرته بالاعتداء على العلماء وقتلهم بغير حق يتمثل في الأمر بالقبض على السهروردي وتنفيذ حكم الإعدام فيه دون جريرة. وهذا يدل على أنه يكره العلم والعلماء ويضيق بهم.

وتشويه سيرته بالغدر في الأمان يتمثل في قتله لحاكم الكرك بعد أن أعطاه الأمان. وهذا ليس من طبع الحكماء الشرفاء ولا سيما الذين يحكمون باسم الإسلام [46].

دحض هذه الافتراءات

لكن هذه الاتهامات والانتقادات ليس لها ظل من الحقيقة إلا مجرد ذكرها، وكثيراً ما تنتشر أخبار مكذوبة واتهامات ظالمة عبر أطراف الألسنة دون أي أثارة من علم: «إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم، وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم» [47]. فشرب الخمر يبعد عنه الاتهام به طيب محتده، فقد تربى

في بيت علم وفضل تربية تقوم على التهذيب المستمر والتقويم الشامل والرقابة الصارمة، وكان تعليمه الآداب أثناء تحفيظه القرآن كله يصده عن مثل هذا الأمر، كما كان تدريبه على الفروسية وأخذه بالأعمال الشاقة التي تتطلب ذهناً ثاقباً وعقلاً واعياً لا تترك له وقتاً يعاقر فيه الخمر. ولأن الذين نشروا هذه التهمة يحسون أو يدركون أنها تهمة لا تقوم على أساس وأنها قد ترد عليهم قالوا: إنه أقلع عنها وتاب.

والسبب نفسه الذي أبعد عنه تهمة شرب الخمر ـ وهو أنه تربى في بيت علم وفضل ـ يمكن أن يؤخذ لتبرئته من تهمة تنكره لولي نعمته نور الدين زنكي، فإن أصحاب النفوس الكبيرة من طبيعتهم أن يقهروا في نفوسهم أي وسواس يراودهم ـ إن فرض أن هذه المراودة تأخذ جانباً من تفكيرهم ـ للتنكر من أصحاب النعمة عليهم، لأن التنكر للنعمة جحود وكفران، والجحود والكفران ليسا من خصال أصحاب النفوس الكبيرة التي أكبرها وملأها الإيمان. على أن الأسرة الزنكية والأسرة الأيوبية كانتا من أعيان البلاط السلجوقي في عصر الخلافة السلجوقية، وكان منهما الأساتذة الذين تعلم على أيديهم أبناء خلفاء السلاجقة، كما كان منهما العلماء الذين يستشارون ويؤخذ برأيهم في بلاط هذه الخلافة. ومادام هاتان الأسرتان متناظرتين ومتكافئتين في هذا المجال في الفضل والشهامة والعلم والمال فلا يقال إن إحداهما ولية نعمة الأخرى، بل يقال إن إحداهما تعترف أو تقدر فضل الأخرى، فإنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذووه، ويؤكد هذا أنهما كانا فرسي رهان في ميدان الشرف وساحة الجهاد ضد أعداء الإسلام.

أما ما يقال عن إغداقه العطايا على أقربائه دون غيرهم من الأكراد فيكذبه الواقع أولاً والعقل ثانياً، أما الواقع فإن الأكراد جميعاً كانوا يحترمون صلاح الدين ويتجمعون حوله في تعظيم وإجلال، ولم يرو التاريخ أنهم ثاروا ضده في يوم من الأيام مع أنهم أكثر الجماعات استعداداً للثورات. ومثل العمل أو التهمة التي يتهم بها صلاح الدين ـ وهي التفرقة في العطاءات بين أقربائه وغيرهم من الأكراد ـ تدفع جماعة الأكراد ـ إذا صحت هذه التهمة وانتشرت بينهم ـ إلى ثورة عارمة ضد صلاح

الدين. وأما العقل فإن هذه الانتصارات المتتالية والعظيمة التي أحرزها صلاح الدين ضد أعداء الإسلام لا يمكن على الإطلاق أن تتحقق ـ كما يروي التاريخ ـ وهذا القائد موزع بين أبناء جلدته الذين يحيطون به، فبعضهم يحبه لما يحظى من منح وعطايا، وآخرون يكرهونه لحرمانهم من هذه المنح والعطايا، على أن هذه التفرقة يتحرز منها أي قائد يريد أن يحقق النصر في أي معركة.

وأما ما يقال عن تفرقته في المعاملة بين الأكراد والمصريين ـ عندما تآمر جماعة من هؤلاء وهؤلاء على قتله فحكم على المصريين بالإعدام وعفا عن الأكراد ـ فيكذبه التفاف المصريين حوله وتلبيتهم لداعي الجهاد معه بأنفسهم وأموالهم وبذلهم الغالي والنفيس في كل معركة خاضها ضد أعداء الإسلام، إذ لو كان فيه هذا الطابع من المحاباة ومجافاة العدالة لانفضوا من حوله ولما استجابوا لداعي الجهاد معه ولما استطاع أن يحرز أي نصر على أعداء الإسلام، بل لما استطاع أن يبقى في مصر وتبقى أسرته فيها ما يقرب من قرن من الزمان، من النصف الثاني من القرن السادس إلى النصف الثاني من القرن السابع الهجري.

وأما ما يقال عن اعتدائه على العلماء وذكر السهروردي مثالاً على ذلك فحقيقته أن هذا السهروردي قد أشاع الفتنة في حلب وما حولها، وهو شاب عرف عنه أنه كان معانداً للشرائع مبطلاً لها ـ وهذه عبارة القاضي بن شداد [48] ـ أي إنه منكر للالتزام بأي أحكام يفرضها الإسلام وغير الإسلام. ومثل هذا إن لم ينفع معه إلا القتل فلا بد من قتله، لأن الفتنة أكبر من القتل، ولذلك وجه صلاح الدين أمراً إلى صاحب حلب ـ ويطلق عليه الملك الظاهر ـ بتنفيذ عقوبة القتل في هذا الشاب حتى يقضي على الفتنة[49].

وأخيراً ما يقال عن غدره بحاكم الكرك بعد أن أعطاه الأمان. وحقيقة الأمر في ذلك أن هذا الحاكم السيء ـ ويسمى ريجي نالد أو ارناط ـ كان يكره الإسلام والمسلمين كراهية لا حد لها، ويوجه ألفاظاً نابية ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل إنه قرر الزحف إلى الحرمين في مكة والمدينة لتدميرهما وإزالة أي أثر لهما. ثم إنه على الرغم من إبرام معاهدة للصلح معه لم يتورع عن الهجوم على

قوافل المسلمين التجارية التي إنتهزت فرصة هذه المعاهدة وعادت إلى متابعة أسفارها. ولا شك أن هذه التصرفات الطائشة تثير حفيظة المسلمين عامة وصلاح الدين على وجه الخصوص، ولذلك كان ينذر في كل مرة أن ينتقم منه بيده إن أمكنه الله من شخصه، وقد وفى صلاح الدين بنذره عندما أسر هذا الملعون مع غيره في إحدى المعارك، فضرب عنقه بيده ثم أجهز عليه الجنود بسيوفهم[50].

المؤرخون وهذه الاتهامات

وقد اتبع المؤرخون بالنسبة لهذه الاتهامات المنهج التاريخي السائد، وهو التسجيل دون أي تمحيص أو تدقيق، فهي مجرد أخبار، ووظيفة المؤرخ تسجيلها، وليس من وظيفته تحليلها أو تمحيصها أو التدقيق فيها، لأن ذلك فوق طاقة أي مؤرخ، إذ يتطلب زمنا مضاعفاً وجهداً بالغاً، وعلى المطلعين أو الباحثين أن يقوموا هم بوظيفة التحليل والتمحيص والتدقيق للوصول إلى الحقيقة التي لا بد أن تتضح معالمها مع صيغ هذه الأخبار والظروف المحيطة بكل خبر.

لكن هؤلاء المؤرخين سجلوا هذه الأخبار التي تسيء إلى شخصية صلاح الدين بأسلوب الخبر المجرد أحياناً وأحياناً أخرى بأسلوب الخبر الذي تشم منه رائحة الاتهام دون تصريح به، كما في حادثة قتل السهروردي وكما في حادثة قتل أرناط حاكم الكرك (ريجي نالد).

وأرى أن بعض الأخبار التي تسيء إساءة بالغة إلى بعض الشخصيات التي أقر لها التاريخ بالقيادة والريادة في عصور الإسلام يجب أن توضع موضع الريبة وأن تصاغ صياغة خبرية خاصة، أي أن المؤرخين إما أن يفندوا كل خبر من هذه الأخبار وإما أن يسوقوه بأسلوب التضعيف لينبهوا القارئ أو الباحث إلى أنه من قبيل الأخبار التي لا يوثق فيها أو لا يعتمد عليها في إصدار أي حكم، فإن لم يتيسر للمؤرخ هذا أو ذاك فليهمل مثل هذه الأخبار إهمالاً تاماً، لأن ذكرها على هذه الصورة التي اتبعها المؤرخون تسيء إلى ذاكرة التاريخ قبل أن تسيء إلى ذاكرة القراء والباحثين.

أصحاب الموسوعات وهذه الاتهامات

ومع التماسنا العذر واعترافنا بالشكر للسادة المؤرخين، هؤلاء العلماء الأفاضل والأساتذة الكبار الذين أتحفونا بوافر المعلومات عما حدث في عصرهم والعصور التي سبقته وجعلوا الماضي أمام أعيننا صفحة واضحة المعالم بادية القسمات أو شاشة كبيرة تتحرك عليها أحداث الماضي كما لو كانت تحدث اليوم لا الأمس ـ وهذه مهمة شاقة قد ينوء بحملها أفذاذ الرجال ـ لكننا نقول إن سادتنا المؤرخين قد أعطوا الضوء الأخضر لأصحاب الموسوعات ـ التي تطبع بكثرة والتي تنتشر انتشاراً واسعاً في الأوساط الثقافية ويرجع إليها الكثير من المثقفين والباحثين ـ ليتناقلوا هذه الأخبار السيئة التي تسيء إساءة بالغة إلى شخصيات لها وزنها في تاريخ المسلمين، ويحرصوا كل الحرص على نسبة هذه الأخبار إلى كتب هؤلاء السادة المؤرخين. وقد يكون لأصحاب هذه الموسوعات ـ ومعظمهم غير مسلمين ـ هوى غالب وغاية خاصة من نقل هذه الأخبار السيئة وإشاعتها.

وتنقية التاريخ مما ألم به ـ أو احتمله عبر العصور من زَبَد راب أحياناً ـ تعتبر واجباً تفرضه الإنسانية والأمانة العلمية والشرائع الدينية، فإن عدم الدقة أو عدم تحري الحق في نقل الأخبار تضليل للإنسانية وتجهيل لها بنفسها، كما أن ذلك يثير الشكوك في مصادر المعلومات ويتحدى الفضائل المقررة التي تنادي بذلك في دين الله. وقد عنى القرآن بقصص السابقين وعرضها بأساليب متعددة وفي أكثر من سورة للتأكيد على أن أخبار الإنسانية يجب أن تكون على هذا النحو من الصدق والتحري حتى لو تنوعت الأساليب واختلفت العبارات وتعدد العرض، كما يشير ذلك إلى أن المصدر في التاريخ يجب أن يكون مصدراً موثوقاً فيه، وليس هناك من مصدر يوثق به بعد كتاب الله.

ومادام كتاب الله في القمة من الثقة «ذلك الكتاب لا ريب فيه» [51] فإن الأمة الإسلامية المنسوبة إلى هذا الكتاب يجب أن تكون في القمة من الثقة، وأن يكون علماء التاريخ فيها ـ على نحو أخص ـ من أهل هذه القمة.

وأقترح تكوين لجنة من المبرزين في علم التاريخ لتقوم بأمرين مهمين يساعدان على التربع على هذه القمة، وهذان الأمران هما: **أولاً**: وضع أصول وقواعد ينضبط بها قبول الخبر أو تقويمه. ويمكن الرجوع في وضع هذه الأصول والقواعد إلى منهج المحدثين.

ثانياً: اختيار لجان متخصصة في فروع التاريخ للقيام بمراجعة كل ما كتب وتقويمه بناء على هذه الأصول والقواعد.

ولا مانع من أن يتبنى هذا العمل الجليل حكومة متحمسة له أو غني مقتنع به، وحبذا لو توفر الإخلاص في كل عالم يسند أو يعهد إليه القيام بجهد في هذا السبيل. والحكومات المتحمسة للانجازات العلمية تكون في الغالب أقدر، لكن الأغنياء المقتنعين بهذه الإنجازات يكونون في الغالب أكفاء. والقدرة المتميزة للحكومات ترجع في هذا المجال إلى سعة مجالات العمل في إنجازه، أما الكفاءة المتميزة بالنسبة للأغنياء فترجع إلى الدقة في اختيار من يقومون بمثل هذه الانجازات العلمية. وليس بمستحيل أن تقترن القدرة المتميزة بالكفاءة المتميزة لإنجاز أي عمل جليل.

وقد يكون لوزارات الثقافة في الأقطار الإسلامية دور في هذا المجال، ولكنه دور على كل حال ضئيل، إذ تغلب عليها تلبية الرغبات الجماهيرية، وتكاد طاقاتها وإمكاناتها تستنفد في تلبية هذه الرغبات فلا يبقى بعد ذلك متسع لأي عمل علمي جاد، وإن بقي فلا يكاد يفي بما ينبغي أن يكون أو بما يمكن أن يتوقعه الباحثون.

وقد يكون للدراسات الجامعية من مؤلفات الأساتذة ورسائل الدراسات العليا دور هام في هذا المجال، ولكنه دور ينقصه التنسيق والتكامل، فليس هناك خطة موضوعة لكل تخصص من التخصصات بحيث تستوعب موضوعاته وتدور البحوث والدراسات في نطاق هذه الموضوعات، وإن وجدت هذه الخطة فليس هناك اتفاق بين الجامعات للالتزام بها في بحوثها ودراساتها.

وقد يكون للمؤتمرات العلمية دور مماثل في الأهمية، ولكنه دور قد تؤثر فيه اتجاهات خاصة لا يستطيع الباحثون معارضتها أو على الأقل التغاضي عنها. وقد تبقى

حصيلة البحوث والدراسات المقدمة لهذه المؤتمرات حبيسة أو مهملة لا يصل إليها قارئ ولا ينتفع بها باحث.

فاعلية دور التجرد في معارك النصر

ونتناول أخيراً هذا الدور العظيم غير المنظم الذي كانت له فعاليته الحاسمة في معارك صلاح الدين، وهو دور العلماء المتجردين، فإن المقام الرفيع الذي احتله صلاح الدين في قلوب كثير من المسلمين المخلصين قد جذب إليه عدداً لا بأس به من هؤلاء العلماء من أمثال القاضي الفاضل [52] والفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري [53] وأبي شامة شهاب الدين عبدالرحمن المقدسي [54] والعماد الكاتب [55] والشيخ الحافظ ابو طاهر [56] ونجم الدين الشهرزوري [57] وغيرهم.

ولأن الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف فقد كانوا حوله كالهالة تحيط بالسراج المنير أو القدرات المفكرة ترتبط بالعقل الكبير، فهي تكشف بهالتها الكاشفة كل ما دق وخفي عن الأبصار فيتضح كل ما أشكل أمره وينتظم في سلك واحد كل ما صعب انتظامه.

ولقد بدت للناس ظواهر الكشف في هذه الأمة أيام عمر رضي الله عنه، فقد رأى في إحدى خطبه بالمدينة ـ وهو يخطب يوم الجمعة ـ أن الجيش الذي بعث به إلى العراق بقيادة سارية بن زنيم يكاد يقع في هزيمة منكرة أمام جيش العدو، فنادى بأعلى صوته قائلاً ـ دون أن تكون هناك مناسبة لهذا القول في خطبته ـ يا سارية الجبل، فرآه وسمعه سارية وكل جندي تحت قيادته، وأسرعوا في الحال إلى جبل قريب منهم قبل أن يحيط بهم العدو ويلحق بهم الهزيمة.

ولم تكن ظاهرة الكشف هذه دون أساس شرعي أو نص من الوحي يقررها ويخص أولياء الله في هذه الأمة بها، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث من الأحاديث القدسية التي تسند إلى رب العزة: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب. وما تقرب عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه. ومايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن

استعاذني لأعيذنه»[58].

ولقد تجلت هذه الظواهر دون خفاء في عصر صلاح الدين ـ وهذا لا ينفي أن مثل هذه الظواهر قد حدثت من قبله وحدثت من بعده ـ ففي إحدى المعارك الحربية بالشام «كانت هناك قلعة حصينة جداً للفرنج لم يتمكن المسلمون من الوصول إليها من أي جهة من الجهات. وإمعانا في صد المسلمين عن هذه القلعة وضع الفرنج ما عندهم من أسرى المسلمين على سطح هذا الحصن حتى يراهم المسلمون فيكفوا عن رمي من في هذا الحصن. ولكن هؤلاء الأسرى من المسلمين لما سمعوا تكبير المسلمين في نواحي القلعة كبروا كذلك. وظن الفرنج أن المسلمين قد صعدوا على السطح، فاستسلموا للمسلمين وألقوا بأيديهم إلى الأسر، فملكها المسلمون عنوة ونهبوا ما فيها[59]، وأسروا وسبوا من فيها[60] وأخذوا صاحبها وأهله، وأمست خالية لا ديار بها[61]، وألقى المسلمون النار في بعض بيوتهم فاحترقت»[62...63].

«وفي سنة 564هـ ـ الأول من ذي القعدة ـ قتل مؤتمن الخلافة ـ وهو خصي كان بقصر العاضد، إليه الحكم فيه والتقدم على جميع من يحويه ـ فقد اتفق هو وجماعة من المصريين على مكاتبة الفرنج واستدعائهم إلى البلاد والتقوّي على صلاح الدين ومن معه، وسيّروا الكتب مع إنسان يثقون فيه واقاموا ينتظرون جوابه. وسار ذلك القاصد إلى البئر البيضاء[64]، فلقيه إنسان تركماني، فرأى معه نعلين جديدين، فأخذهما منه ـ وقال في نفسه: لو كانا مما يلبسه هذا الرجل لكانا خلقين، فإنه رث الهيئة ـ وارتاب به وبهما، فأتى به صلاح الدين، ففتقهما فرأى الكتاب فيهما، فقرأه وسكت عليه. وكان مقصود مؤتمن الخلافة أن يتحرك الفرنج إلى الديار المصرية، فإذا وصلوا إليها خرج صلاح الدين في العساكر إلى قتالهم، فيثور مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على متخلفيهم فيقتلونهم ثم يخرجون بأجمعهم يتبعون صلاح الدين فيأتونه من وراء ظهره ـ والفرنج من بين يديه ـ فلا يبقى لهم باقية، فلما قرأ الكتاب سأل عن كاتبه، فقيل: رجل يهودي، فأحضر وأمر بضربه وتقريره، فاعترف وأسلم وأخبره الخبر. وأخفى صلاح الدين الحال. ولما استشعر مؤتمن الخلافة ذلك لازم القصر ولم يخرج منه خوفاً، وإذا خرج لم يبعد عن صلاح الدين، وصلاح الدين لا يظهر له شيئاً

من الطلب لئلا ينكر ذلك. فلما طال الأمر خرج من القصر إلى قرية له تسمى بالحرقانية للتنزه. فلما علم به صلاح الدين أرسل إليه جماعة فأخذوه وقتلوه» [65].

«وفي سنة 587هـ ـ 28 من رجب ـ كانت هناك وقائع بين صلاح الدين والفرنج ناحية عسقلان، وفي إحدى هذه الوقائع إنهزم المسلمون إلى قلب الجيش ـ وفيه صلاح الدين ـ فلو علم الفرنج أنها هزيمة لتبعوهم واشتهرت الهزيمة وهلك المسلمون. لكن كان بالقرب من المسلمين دوحة كثيرة الشجر فدخلوها، وظنها الفرنج مكيدة فعادوا. وزال عن جيش المسلمين ما كانوا فيه من الضيق، وقتل من الفرنج جمع كبير من طواغيتهم» [66].

هذه وغيرها تجلت في معظم المعارك التي خاضها صلاح الدين ضد أعداء الإسلام، وما أكثرها من معارك، وهذا يدل دلالة واضحة على فعالية الاخلاص الذي تنطلق إشعاعاته من النفوس المتجردة فتضيء طريق الخلاص والنصر للمسلمين.

ولا شك أن لكل نفس إنسانية إشعاعاتها الخاصة بها، وتختلف قوة هذه الإشعاعات باختلاف قوة الإيمان فيها وسيطرة الروح على قدراتها، فكلما قوي الإيمان واستحكمت سيطرة الروح على قدرات النفس قوي إشعاعها على من حولها وانطلق هذا الإشعاع إلى آفاق بعيدة. ويقرب هذا للذين قد يستبعدون ما نقول أو ينكرونه أنّ جهاز التلفاز يرسل الآن الصورة والصوت إلى أماكن بعيدة عن طريق هذا الإشعاع، إذ تسلط أشعة قوية على الجسم فتنتشر ذراته عبر الأثير ليلتقطها أي جهاز استقبال فيظهرها ويجلّيها كما هي دون أي اختلاف في قسمات الصورة أو في نبرات الصوت.

إن هذا الإشعاع الإيماني الذي نتحدث عنه لا يقتصر على نقل الصوت والصورة، ولكنه يكشف الكثير مما دق وجل من شؤون الناس وتصاريف القدر، ومع هذا الكشف يكون العلاج والحل لأعقد المشكلات وأصعب المعضلات التي لم يتوقع لها علاج أو ينتظر لها حل، حتى إن دلائل النصر في صفوف الأعداء تتحول في لحظات إلى إعلان بالهزيمة الساحقة، كما أن دلائل الهزيمة في صفوف المسلمين تتحول في لحظات إلى إعلان بالنصر الحاسم والفوز المبين.

وإذا كانت هناك مؤسسات تقام للتحكم في هذه الإشعاعات البدنية ونقلها إلى اي مكان في شرق الأرض وغربها، فإن المؤسسات التي أقامها الله للإشعاعات الروحية مؤسسات عليا لها نظامها العلوي وإشرافها الإلهي الذي يخبر عنه قوله تعالى: «كتب الله لأغلبن أنا ورسلي، إن الله قوي عزيز» [67]، «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا» [68]، « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون» [69]، «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون» [70]، «إن العاقبة للمتقين» [71]، «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً [72]، «يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» [73].

إن نور الله في هذه المؤسسات الإلهية يركز على أبدان الصالحين وأرواحهم فتنتقل صورهم وأصواتهم في أقطار الأرض وأرجاء السماء، وتتفاعل مع أحداث الكون وأقدار الله، فتنتظم بها أحوال الناس وتعتدل بها أوضاع الخلق في ملكوت الله.

ولذلك نستطيع أن نقول إن هذه الانتصارات الحاسمة في معارك صلاح الدين مع أعداء الإسلام كانت نتيجة انطلاقات روحية في آفاق المعارك، كما كانت نتيجة تخطيط حكيم وإقدام شجاع من جنود بواسل، فإن أعداء الإسلام ـ كما يسجل التاريخ ـ كانوا في كثير من المواقع أغزر سلاحاً وأكثر جنداً وأوفر مدداً، وكانوا بهذا العدد وهذا المدد ينطلقون بجنودهم المجندة وحشودهم الحاشدة يزرعون الرعب في الأرض قبل أن يحاولوا زرعه في قلوب جنود الإسلام، وكان الذي ينظر إلى جموعهم وحشودهم وأسلحتهم يعتقد ـ دون أن يراوده أدنى شك ـ أن كفّة النصر ترجح في جانب هؤلاء الأعداء وتشيل في جانب جنود الإسلام . وعلى الرغم من ذلك كله فقد إنهزم هؤلاء الأعداء إنهزاماً ساحقاً وانكسروا انكساراً ماحقاً. وهذا يشير إشارة واضحة ويدل دلالة قاطعة إلى أن هناك دوراً له أهميته وفعاليته في هذه المواقع، وهذا الدور يتمثل في انطلاق أمداد قوية من نفوس عالية تهيمن على آفاق هذه المعارك وأجوائها وتمهد طريق النصر أمام جند الله. إن لهذه الأمداد القوية من النفوس ـ التي أعلاها إيمانها وإخلاصها وتجردها ـ دورها الفعال في تحقيق التوازن في أنظمة الحياة

على العموم وفي تحقيق النصر في ميادين الحروب على الخصوص.

روح المجتمعات الإسلامية

ومادام العلماء المتجردون على هذا المستوى من الفعالية وعلى هذه الدرجة من الأهمية فيعتبرون روح المجتمعات الإسلامية، وعلى هذه المجتمعات أن تبذل أقصى ما تستطيع للحفاظ على هذه الروح أن تفتر أو تخبو أو تذوي، فالروح الفاترة أو الخابية أو الذاوية لا تنطلق بل تنغلق، ولا تعلو بل تسفل، ولا تستبشر بأي جديد بل تصر على الجمود، ولن يستطيع أي مجتمع بهذه الروح الفاترة أو الخابية أوالذاوية ـ ولا سيما المجتمع الإسلامي ـ أن يثبت وجوده أو يسجل له التاريخ أي دور في حياة البشر، فبسمو هذه الروح فيه يسمو، وبسفولها يسفل ثم يأفل.

إن المجتمعات الإسلامية مسؤولة حكاماً ومحكومين أن تعلى من شأن هؤلاء العلماء المتجردين وأن تؤمن حياتهم وتزودهم بكل ما يتطلبه وضع الاحترام والتكريم. والقيام بهذه المسؤولية يقتضي **أولاً** أن يكون هؤلاء العلماء المتجردون في مكان الصدارة بحيث يكونون مصدر التوجيه والريادة في مختلف شؤون الحياة الاساسية للمجتمعات الإسلامية. **وثانياً** أن تكون هناك استجابة فاهمة ومقدرة وشاملة لكل توجيه يصدر من هؤلاء العلماء. **وثالثاً** أن يحافظ على سمعة هؤلاء العلماء أن تشوه وعلى كرامتهم أن تخدش. وبهذه الأركان الثلاثة يستطيع أي مجتمع إسلامي أن يقوم بمسؤوليته تجاه هؤلاء العلماء حتى يأخذ مكانه الريادي أو المرموق بين مجتمعات البشر.

سيطرة هذه الروح في معارك صلاح الدين

ولقد كانت هذه الروح مسيطرة في معارك صلاح الدين خاصة وفي سياسته عامة. والذي يؤكد ذلك هذه المواقع الحربية كثيرة العدد التي أحرز النصر فيها على الرغم من قوة شكيمة العدو وكثرة جنوده ووفرة سلاحه وتحصين مدنه واستحكامات حصونه.

ويكفي أن نذكر من هذه المواقع ما تم فتحه من مدن وحصون استولى عليها

صلاح الدين من ديار الفرنج في ثلاث سنين فحسب ـ أي من سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (583) إلى سنة ست وثمانين وخمسمائة (586) ـ فقد افتتح في هذه المدة القصيرة: طبرية ـ على بحر الأردن ـ بالسيف، عكا ـ على البحر الكبير ـ بالأمان، حيفا ـ على البحر ـ بالأمان، الناصرة بالسيف، الرملة بالسيف، قيسارية بالسيف، أرسوف بالأمان، جبيل بالسيف، هونين بالسيف، جبلية بالسيف، تبنين بالسيف، الطرطوس ـ دون أخذ برجها بالسيف، جبلة: مدينتها بالسيف وقلعتها بالأمان، اللاذقية: مدينتها بالسيف وقلعتها بالأمان، السرفند، مدينة القدس الشريف، نابلس، البيرة بأرض القدس، صفورية، الطور، حصن دبورية، الفولة، حصن عقربلا، حصن جينين، سفسطية، كوكب، حصن عفري (شمال القدس)، بيت لحم، حصن العازرية (بأرض القدس)، البرج الأحمر (قريباً من هذا الحصن)، حصن الخليل عليه السلام، بيت جبرين، تل الصافية، حصن مجدل يابا، قلعة الحبيب الفوقاني، «الحبيب» التحتاني، النطرون، الحصن الأحمر، اللد (بأرض الرملة)، قلنوسة (قريباً منها)، يبني، الفاقون والقيمون، قلعة الكرك (بعد حصار سنة ونصف)، قلعة الشوبك (بعد حصار سنتين)، قلعة السلع، الوعيرة، قلعة الجمع، قلعة الطفيلة، قلعة الهرمز، قلعة صفد، حصن يازور، شقيف أرنوف، حصن اسكندرونة (بين صور وعكا)، قلعة أبي الحسن (بأرض صيدا)، صيدا (أيضاً حصن)، بلدة الساحل الأعلى، المرقية (على البحر)، حصن يحمور (بأرض عكا)، بلنياس (بين جبلة والمرقب)، صهيون، بلاطنس، حصن الجماهرية، قلعة العنده، بكاس، الشعر، بكسرائيل، السرمانية، قلعة برزية، دربساك، بغراس (قريباً من انطاكية)، الدانور (بأرض بيروت)، السوفند (قريباً من صيد[74]).

الهوامش والمراجع

(1) **سورة الأنعام**: آية 75 ـ 82.

(2) **سورة المدثر**: الآيات 15 ـ 23.

(3) رواه البخاري في صحيحه، جـ 1، ص 26، كتاب العلم، باب فضل من عَلِمَ وعلَّم.

(4) الجلاب هو أي عصير يباح شربه.

(5) حتى تفهم العبارة جيداً حدث فيها تغيير طفيف.

(6) حدث في هذه العبارة تغيير طفيف أيضاً.

(7) أي يدرأ عن نفسه القتل قصاصاً بخلاف القتل ظلماً.

(8) سورة النساء: آية 145.

(9) سورة الأنعام: آية 159.

(10) سورة الأنعام: آية 153.

(11) رواه السخاوي في المقاصد الحسنة.

(12) أنظر: **الموافقات**، لأبي إسحاق الشاطبي: جـ 2، ص 337 ـ 343، بيروت: من دون تاريخ.

(13) رأينا أن لا نذكر نماذج هنا تقديراً منا لاختلاف وجهات النظر في تقويم الشخصيات التي يجري لها ذكر على ألسنة الناس أو في كتب التاريخ، ولذلك اقتصرنا على ذكر هذه القضية مجردة، ولا سيما أنها أصبحت من المسلمات في أذهان الجميع بالتجربة والتواتر. على أننا نسوق على سبيل المثال زيادة في الإيضاح نموذجاً في الجانب المضيء ـ وهو ابن تيمية الذي أثير حوله غبار التجسيم لتشويه سيرته ـ ونموذجاً في الجانب المظلم ـ وهو ابن المقفع الذي ألبس تاج الفخار في النقد والأدب والفلسفة ـ وهو ما هو في الإفك والزندقة. أنظر: في ابن تيمية: **سلسلة أعلام العرب**، رقم (5)، للدكتور: محمد يوسف موسى، الدار المصرية للتأليف والنشر، الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل للدكتور محمد السيد الجليند، مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر، 1973م. وانظر في ابن المقفع: **البداية والنهاية لابن كثير**، جـ10، تحقيق: الدكتور أحمد أبو ملحم وآخرين، بيروت: دار الكتب العلمية، 1987، ص 98.

(14) الآيتان 187، 188 من **سورة الأعراف**.

(15) الآية 69 من **سورة العنكبوت**.

(16) الآية 39 من **سورة الأنفال**.

(17) الآية 36 من **سورة التوبة**.

(18) الآية 216 من **سورة البقرة**.

(19) - Voir Cohen (Claude), La Syrie du nord a L'epoque des croisades (S.D.)Gibb, The Arabic Sources for the Life of Saladin (speculum, 25, 1925), Recueil des Historiens des Croisades, Historiens orientaux, lane - Poole Saladin.

(20) الآية 110 من **سورة آل عمران**.

(21) رواه بألفاظ متقاربة أصحاب السنن.

(22) ينسبون إلى أحد الشيعة الباطنية ويسمى (حمدان قرمط)، فهم فرقة من الباطنية.
وقد نسب إلى هذه الفرقة فضائح كثيرة وبدع متعددة، وكانوا يميلون إلى الديانة المجوسية. وتأسست الباطنية على يد عبدالله بن ميمون القداح سنة 260هـ. انظر محمد فريد وجدي: **دائرة معارف القرن العشرين**، مجلد7، ص 713 وما بعدها، من دون تاريخ، وانظر كذلك: **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**، الرياض: 1989، ص 393.

(23) فرقة من الشيعة الباطنية، كونها أحدهم ـ وهو الحسن بن الصباح ـ في القرن الخامس الهجري ـ وأقام لها قلعة (الأموت) قرب قزوين. وكان زعيمهم أيام صلاح الدين هو راشد الدين سنان ـ من ألد أعداء

صلاح الدين ـ ومن منهجهم الطاعة العمياء لرئيسهم وتنفيذ ما يأمر به ولو كان في ذلك موت المأمور. وقد قضوا على كثير من الملوك والسلاطين وقادة الجيوش. وراشد بن سنان كان يقيم ـ أيام صلاح الدين ـ في قلعة تسمى قلعة مصياف، وهي قلعة منيعة جداً ببلاد الشام.

- See Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, London, 1822, p. 450..

(24) فرقة من الشيعة، وسميت كذلك لأنهم سألوا زيد بن علي بن الحسين عن رأيه في أبي بكر وعمر، فترحم عليهما وأحسن القول فيهما، فرفضوا ذلك، أما الذين لم يرفضوا ولم يخرجوا على زيد فهم الشيعة الزيدية. انظر: **دائرة المعارف الإسلامية للناشئين**، القاهرة للصحافة والترجمة والنشر، 1983، ص 186.

(25) ظهرت هذه الجماعة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وهي جماعة سياسية دينية ذات نزعات شيعية متطرفة، وربما كانت اسماعيلية، وهذا هو الوجه الأصح. وقد اتخذت هذه الجماعة مدينة البصرة مقراً لها. وأطلقوا على انفسهم (إخوان الصفا) لأنهم غايتهم إنما كانت السعي إلى سعادة نفوسهم الخالدة بتضافرهم فيما بينهم وبغير ذلك من الطرق، وخاصة العلوم التي كتبوا فيها ما يقرب من 52 رسالة.

ويذهب إخوان الصفا إلى أن الأديان كلها في جميع العصور وعند جميع الناس يجب أن تتفق مع حكمة تشبه النفس بالله بقدر ما يستطيع الإنسان. انظر: دائرة المعارف الإسلامية، جـ 1، مترجمة، القاهرة: 1933، ص 527.

(26) انظر: بهاء الدين بن شداد: **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة: 1964، ص 21.

(27) هو آخر خليفة من الحكام الفاطميين في مصر، وقد ابتدأ بعده العهد الأيوبي.

(28) انظر **الكامل** لابن الأثير: جـ 9، ص 102، ـ بيروت: دار الكتاب العربي، 1986.

(29) الآية 216 من سورة البقرة.

(30) الآية 7 من سورة الأنفال.

(31) الآية 96 من سورة آل عمران.

(32) الآية الأولى من **سورة الإسراء**.

(33) الآية 30 من **سورة القصص**.

(34) الآية 75 من سورة النساء.

(35) الآية 97 من سورة النساء.

(36) الآية 87 من **سورة يونس**.

(37) انظر غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم في كتب السيرة والتفسير.

(38) الآية 79 من **سورة الأنبياء**.

(39) الآية 118 من سورة آل عمران.

(40) سنشير إلى بعض أسماء هؤلاء فيما بعد.

(41) انظر: الكامل، جـ 9، ص 124.

(42) انظر القسم الثاني من الجزء الأول، ص 582، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، وزارة الثقافة

المصرية، 1962.

(43) انظر: الكامل، جـ 9، ص 82، 83.

(44) انظر: الكامل، جـ 9، ص 141، 142.

(45) الذين كتبوا عن صلاح الدين بلغات أجنبية ـ وهم قلة تعد على أصابع اليد الواحدة ـ لم ينصفوه. ولا ينتظر من أي كاتب أجنبي أن يصف صلاح الدين، ما عدا كاتبة ظهر مؤلفها حديثاً بعنوان:

- Saladin, Rassembleur de L,Islam, Paris 1991.

وتسمى: Genevieve Chauvel، ومما جاء في مؤلفها عن صلاح الدين قولها: رجل مؤمن حق الإيمان، مخلص تمام الإخلاص، وفيّ بالعهد، بسيط في حياته، سلوكياته تتسم بالكرم والمروءة والشهامة، حتى إن قادة الحروب الصليبية اعترفوا له بذلك، وأولهم ألد أعدائه ريتشارد قلب الأسد، وهذه الصفات الخالية من الروح العدائية الحاقدة هي التي جعلت الناس في فرنسا ينظرون الآن نظرة مختلفة إلى صلاح الدين.

(46) هذه التهم مستقاة من المصادر الآتية: لشهاب الدين أبي محمد عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي: **الروضتين في أخبار الدولتين**، بيروت: دار الجبل، بدون تاريخ، الناصر صلاح الدين للدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور: **سلسلة أعلام العرب رقم (4)**، الدار المصرية للتأليف والنشر، أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق: الدكتور بشار معروف والدكتور محيي هلال السرحان، جـ 21، ص 278 وما بعدها، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1984م.

(47) الآية 15 من **سورة النور**.

(48) انظر النوادر السلطانية ص 6.

(49) انظر النوادر السلطانية ص 6.

(50) انظر النوادر السلطانية ص 64.

(51) الآية الأولى من سورة البقرة.

(52) هو عبدالرحيم بن علي السعيد اللخمي المعروف بالقاضي الفاضل، يعتبر من أئمة الكتاب، وكان من وزراء السلطان صلاح الدين ومن مقربيه، ولم يخدم بعده أحداً. قال بعض من ترجموا له: كانت الدولة بأسرها تأتي إلى خدمته. وكان السلطان صلاح الدين يقول: لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل. وكان سريع الخاطر في الإنشاء كثير الرسائل. انظر: لخير الدين الزركلي: **الأعلام**، ط 3، جـ 4، دون تاريخ أو ناشر، ص 121.

(53) هو عيسى بن محمد بن عيسى الحسني الطالبي، أبومحمد، ضياء الدين الهكاري، مستشار السلطان صلاح الدين الأيوبي. كان في مبدأ أمره يشتغل بالفقه في حلب، واتصل بالأمير شيركوه فصار أمامه، وتوجه معه إلى مصر. ولما توفي شيركوه سعى الهكاري إلى إقامة صلاح الدين في موضعه من الوزارة، ولم يكن صلاح الدين يخرج عن رأيه، وكان يلبس زي الجند ويعتم بعمامة الفقهاء. انظر: الأعلام، جـ 5، ص 107.

(54) هو الإمام الحافظ المؤرخ الثقة الفقيه البارع ابوشامة عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي. تلقى العلم عن أمثال السخاوي والعز بن عبدالسلام والموفق المقدسي وأبي إسحاق الخشوعي وداود بن ملاعب وكريمته. قال الذهبي: كان مع براعته في العلوم متواضعاً، تاركاً للتكلف ثقة. انظر: الحافظ شهاب الدين أبي شامة: **تراجم رجال القرنين السادس والسابع**، دار الجيل، 1974 (المقدمة).

(55) هو محمد بن محمد صفي الدين بن نفيس الدين حامد بن أده، أبو عبدالله، عماد الدين الكاتب الأصبهاني، مؤرخ عالم بالأدب من أكابر الكتاب، رحل إلى دمشق بعد البصرة وواسط ثم لحق بصلاح

الدين بعد موت نورالدين فكان معه في مكانه وكيل وزارة، وكان إذا انقطع القاضي الفاضل بمصر لمصالح صلاح الدين قام العماد مقامه. انظر: الأعلام، جـ 7، ص 26، 27.

(56) هو أبوطاهر أحمد بن محمد بن سلفة الأصفهاني، وكان حافظ الحديث عالماً به، سافر إلى جهات عدة لطلب الكثير منه، وكانت إقامته بالأسكندرية حيث توفي بها، كما كان على صلة قوية بصلاح الدين. انظر: الكامل، ص 152.

(57) هو نجم الدين بن محمد علي بن القاسم الشهرزوري، قام بالقضاء في الموصل على عهد صلاح الدين، وكان عالماً فاضلاً يتحرى الحق والعدل في الحكم بين الناس. وقد تعلم إبنه حجة الدين عبدالقاهر كيف يقوم بهذه المسؤولية على يديه، وتولى أمر القضاء من بعده، انظر: الكامل، جـ 9، ص 105.

(58) حديث متفق عليه.

(59) لا داعي لهذا التعبير، فإنه يوحي بأنه جند صلاح الدين من الرعاع والسوقة الذين لا هم لهم إلا السلب والنهب دون تفكير في أخلاق الجهاد وآدابه.

(60) ما الفرق بين الأسر والسبي؟

(61) هل هذا نعي لهم وأسى عليهم؟

(62) هل هذا تعريض بصلاح الدين وجنده؟

(63) انظر: الكامل، جـ 12، ص 16، بيروت: دار صادر، 1966.

(64) مكان كان مشهوراً في هذا الوقت يمر عليه الذاهب من مصر إلى الشام.

(65) انظر: الكامل، جـ 9، ص 103.

(66) انظر: الكامل، ص 215.

(67) الآية 21 من **سورة المجادلة**.

(68) الآية 51 من **سورة غافر**.

(69) الآية 172 من **سورة الصافات**.

(70) الآية 105 من سورة الأنبياء.

(71) الآية 49 من **سورة هود**.

(72) الآية 55 من سورة النور.

(73) الآية 7 من **سورة محمد**.

(74) انظر: النوادر السلطانية، ص 248.

* * *